فَتْحُ الرَّحْمنِ في الْكَشْفِ عَنْ فَرَائِدِ القُرآن الكَرِيم

«سُورة الأنْبِيَاء أُنْمُوذَجَاً»

إعداد

د/ محروس رمضان حفظي عبد العال

مُدرس التَّفْسِير وَعُلُوم الْقُرآن
في كلية أُصُول الدِّين والدَّعوة بأسيوط

فَتْحُ الرَّحْمنِ فِي الْكَشْفِ عَنْ فَرَائِدِ القُرآن الكَرِيم «سُورة الأنْبِيَاء أنْمُوذَجًا»

محروس رمضان حفظي عبد العال
قسم التَّفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدِّين والدَّعوة بأسيوط، جامعة الأزهر، أسيوط، مصر.
البريد الإلكتروني: mahrousramadan2@azhar.edu.eg

ملخص البحث

هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن سِرَّ تفرُّد ألفاظ آي الذِّكر الحكيم بصفة عامة والفرائد بصفة خاصة، والتي جاءت على غير مِثالٍ سابقٍ بأسلوبٍ غير مُكرَّر بين ثنايا آيات القرآن، فتميزت بإتْقَانٍ وبديع تركيبها، وحُسن تنسيقها وبنائها، وتخصَّصت بنسْج حروفها، وتفردت في سياقها، واتَّسقت بروعة وجمال عرضها؛ لتُبرهن بالآيات الساطعة والبينات القاطعة على أنها من لدن حكيمٍ خبيرٍ.

استخدم الباحث المَنْهَج الاستقرائي، الوصفي التحليلي، الاستنباطي عن طريق جَمْع الفرائد من خِلالِ سورة الأنبياء حَسَبَ ورودها في المصحف الشريف والتي لمْ يرد ذكرها في آيات القرآن إلَّا مرة واحدة، ولم يشتق من جذرها اللُّغوي سواها، ثُمَّ دراستها دراسة تفسيرية بالغوص في سرِّ تفرُّد هذه الفريدة ومجيئها على هذا النَّسق دون غيرها من المترادفات المماثلة لها في اللَّفظ، وبيان ما تنطوي عليه من نكاتٍ بلاغية ولمسات بيانية ولطائف جمالية وأسرار فنية ممَّا يُؤكد إعجاز القرآن البياني والبلاغي.

تكون البحث من مُقدِّمةٍ وثلاثة مباحث ، وخاتمة.

المبحث الأول: التَّعرِيف بسُورَةِ الأَنْبِيَاء، المبحث الثاني: بين يدي

الفرائد، ويشتمل على: تعريف الفرائد لغة واصطلاحاً، الفرائد في الدراسات التي تعرضت لبلاغة القرآن الكريم، هل وقع التَّرَادُف في القرآن الكريم ؟، المبحث الثالث: فرائد سورة الأنبياء، وقد اشتملت على عشر فرائد فقط، تنَّوعت في اشتقاقها ما بين أفعالٍ، فبلغت عدد فرائد الأفعال خمس هي: ﴿قَصَمْنا﴾، ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، ﴿يَكْلَؤُكُمْ﴾، ﴿فَفَهَّمْنَاها﴾، وعدد الأسماء اثنان وهي: ﴿نَفْحَةٌ﴾، ﴿حَدَبٍ﴾، وعدد المصادر واحداً هو: ﴿رَتْقًا﴾، وعدد الصِّفات واحداً: ﴿ذَا النُّونِ﴾، وعدد حروف «نون العظمة» مائة وأربع عشرة.

هذه الفرائد منها ما ورد في سياق الترهيب والتهديد والوعيد: كإهلاك القرى الظالمة: ﴿قَصَمْنا﴾ ، وحال أهل الشرك وَالْإِجْرَام عند نزول العذاب بهم: ﴿نَفْحَةٌ﴾، وما أخبرنا الله –ﷻ– من أمارات السَّاعة: ﴿حَدَبٍ﴾، ومنها ما جاء في سياق الامتنان على الخلق سواء أكانوا أنبياء: ﴿فَفَهَّمْنَاها﴾، أم يشملهم ويعم غيرهم: ﴿يَكْلَؤُكُمْ﴾، ومنها ما أتى في سياق لفت أنظار الخلق إلى بعض مظاهر الإعجاز العلمي في الطبيعة: ﴿رَتْقًا﴾، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، ومنها ما ورد في سياق تقرير سُنَّة من سُنن رب العِزَّة التي لا تتخلف ولا تتبدَّل ألا وهي الصِّراع بين الحق والباطل، ونُصرة الحق في نهاية تلك الجولة: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾.

الخاتمة: تتضمن أهم النتائج والتوصيات التي توصلتُ إليها في هذه البحث.

ثَبْت أهم المراجع.

الكلمات المفتاحية: فرائد، الأنْبِيَاء، القرآن الكريم، أُنْمُوذَجَاً، الْكَشْف.

Endowment of– AL- Rahman (the most Gracious) in revealing the unique words in the Holy Quran – chapter or surat «AL – Anbya'a» as amodel

Mahrous Ramadan Hefzy Abd Aal
Department of interpretation and sciences oF the Holy Quran, Faculty of religion Fundamentals and Call, Assiut , AL-AZhr University, Assiut , Egypt .

E – mail : mahrousramadan2@azhar.edu.eg

Abstract

This study aimed to reveal the secret of the uniqueness of the vocabulary of the words of the Holy Quran in general and the virtues in particular which came in a non-previous example in an unrepeatable manner among the folds of the verses of the Qur'an. They are marked by creative perfect structure and well organized set. They are very Special in their letters and positions. They are shown in a very beautifully amazing way that clearly and undoubtedly prove that they are the words of Allah the most wise and well-acquainted of his creatures . I mean "Allah" .

The researcher used the deductive, inductive and descriptive methods through collecting the unique Vocabulary in surat or chapter of «AL – Anbya'a»(21) as arranged in the Holy book .These words are mentioned in the Holy Quran once only. They are unique in linguistic origin then studying their interpretations trying to know the secret of their unique existence in the Holy Quran and why not any other equivalent or similar words showing the eloquence hints and the beautiful style of these words that

prove the miracle of the Holy Quran . In elquence and great expressive style .

This research consists of an introduction, three topics and a conclusion .

The first research topic is: the definition of surat «AL – Anbya'a» (21).

The second topic is: the explanation of the unique individual words and it includes defining the unique individual words from the linguistic and idiomatic point of view , these individual vocabulary in the rehetorical studies of the Holy Quran and if there is any equivalence between any words in the Holy Quran .

The third topic: the unique individual vocabulary in surat «AL – Anbya'a» and this included only ten unique individal vocabulary items . There varied in their derivation to reach five verbs which are: «destroyed» , «knock out its brain» , «We clove them a sunder» , «keep you safe» , «We inspired the (right) understanding of the matter» .

And there are to nouns: they are «breath of wrath» , «from every hill» .

There is one infinitive: «as one unit of creation» .

There is one adjective : It's «prophet Younous (Za-noun) who was called the companion of the whale» .

The number of the letter «N» which is used to refer to greatness is used one hundred and fourteen times .

These unique individual vocabulary are mentioned in the context of threat, terrifying and warning like destroying the injiust villages : «destroyed» as well as the case of polytheists and the descend of torture on them: it is the "breath of wrath" and words Almighty Allah informed us

about the signs of the doomsday like the word: «from every hill». some are also mentioned in the course of the blesses given by the creator to his crealures whethere they were prophets like the word: «We inspired the right understanding of the matter» or includes them and prevail others came in the course of attracting the attention of the creation to some aspects of the scientific miraculousness in nature: "as one unit of creation" , "we clove them a sunder".

Some others came in the course of stating one of Almighty Allah's rulings which don't be late or change; that's the conflict between right and falsehood and supporting the right at the end of this round "It knocks out its brain".

The conclusion includes the most important results and recommendations of the research and mentioned the most important refrences.

Keywords: Unique Vocabulary - AL – Anbya'a (Chapter 21) - The Holy Quran – a Model – Revealing .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي يسَّر القرآن لأُولي النُّهى، كما هدى به من الضَّلالة والعمى، وحسم بمعجزاته أطماعَ أهل الهوى، ونوَّر بمُحكم تَنزيله قُلوبَ أهل التُّقى، وجعله مهيمناً على الكُتُب السماوية بما أودع فيه من عجائب نظمه، وجزالة لفظه، وعذوبة منطقه، عنوانه دالٌّ على نفاسَةِ موضوعه، وشرف مضمونه، ورِفْعَة غايَتِهِ، جعله الله آية نَبيّه المُصطفى ورسوله المُجْتَبَى، وحُجَّة قاهرة ودلالة ظاهرة على صدق رسالته، فنفى به تحريف المبْطِلين، وتأويلات المفترين، وصانه من كيد الزائغين، وفطَرَ الخلق على العجز عن معارضته والإتيان بمثله، وأخبر أنَّه ليس من كلام المخلوقين، ولا يُشبه أساطير الأولين ولا حديث الشعراء والمُترسلين، فقال – ﷻ – في مُحْكم التَّنزيل: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1]، والصَّلاة والسَّلام على نَبيِّه القائم بما كلَّفه ربُّه، النَّاصح المُبلِّغ لما أُنزل إليه، الكاشف المُوضِّح لما غَمض بيانه، لم يدع خَلَلاً إلَّا أصلحه، ولا عِناداً إلَّا زحزحه، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْه ما هلَّل مُهلِّل وسبحه، وعلى مَنْ نصره وصَحْبه، ومَنْ نهج نهجه واستنَّ بسنته، ونصر الحقَّ ورفع رايته، **أمَّا بعد** ،،،

فإعْجَاز القرآن الكريم البيانِي واللُّغوي لا يَنْفَد مهما وَقَف عليه العُلَماء، وتَنَاوله الفُصَحاء، وقَلَّب فيه الأُدَباء، فهو لا يَزالُ المَعِين الفياض الذي لا يَنْقَطِع على مَرِّ العُصُور وتَوالِي الدُّهُور، فكُلَّما أمْعَنْتَ فيه النَّظَر، وأَعْمَلتَ

(١) الإسراء: (٨٨).

فيه الفِكْر ازْددتَ يَقِيناً وهُدى وبَصِيرة أنَّه كِتاب الله الخَالد الباقي إلى أنْ يرث الله تَعَالَى الأرض ومَنْ عليها، وصدق الله العظيم القائل: ﴿قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾(١)، وقال تَعَالى أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

والمتأمل في الفَرائد يجد أنها تشغل حيزاً كبيراً وهاماً في الحَقل القرآني، وانطلاقاً من هذه الأهمية تبرز قيمة الوقوف عليها والعيش في رِحابها، ويأمل الباحث أنْ تكون دراسته هذه والتي سيعيش من خلالها مع جانبٍ من جوانب هذا الاعجاز البياني، ويُسلِّط الضوء على بعض ألفاظ القرآن التي لم تتكرر في القرآن كله حتى إنَّ جذرها الاشتقاقي لم يتكرر في أي سياق آخر في القرآن كله؛ ليُثْبتَ سر تفردها ومجيئها على هذا النَّسق، وذلك من خلال «سُورَة الأَنْبِيَاء»، خطوة متكاملة في طريق إبراز منهج القرآن في المجيء بهذه الفرائد على هذا النَّحو.

أسْبَاب اخْتِياري لِهذا البحث:

دَفَعني لِدارسَةِ هذا البحث بعد إرادة الله – ﷻ – وتَوفِيقِه أُمُور منها:

أولاً: الحاجة الماسة إلى إظهار إعجاز القرآن وبيان عظمته للمسلمين من خلال التعريف ببعض كلماته وألفاظه، وتشويق استخدامها كخطوة جادة لتيسير فهمه واستيعابه ومعايشته بطريقة مغايرة لما هي عليه الآن، وهذا يُسهم في رفد المكتبة الإسلامية بما يستفيد منه الباحثون والمتخصصون،

(١) الكهف: (١٠٩).
(٢) لقمان: (٢٧).

ويكشف عن إعجاز القرآن الكريم، ويُحقِّق المتعة الروحية للمتأمل في بيانه ومضامينه، فهو أمرٌ جديرٌ بأنْ يُستَفْرَغ له الوسع، وتُشْحَذ له الهِمم، ويُبذل فيه الجهد، وتُوجَّه له الطاقة.

ثانياً: الفرائد تُمثِّل ظاهرة واضحة في التعبير القرآني، وهي بحاجةٍ ضرورية لدراستها بشكلٍ وافٍ من خلال أبحاثٍ مستقلة، حيث لم تحظ قديماً إلَّا ببعض التعريفات مع الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم والشعر والنثر العربي، ولم يشْبعها العلماء بحثاً كظاهرة في الأسلوب القرآني، وهذا يدفع أمواجاً من الشبهات يسوقها الجاهلون، ويثيرها الزائغون، وما أكثر هؤلاء في عصرنا هذا.

ثالثاً: لمْ أقفْ على دراسة وافية – على مَبلغ علمي – تناولت فرائد «سُورَة الأَنْبيَاء»، من هنا استْعنتُ بالله – ﷻ – رغبة في إظهار روعة البيان القرآني والغَوْص في كُنُوزه ومعرفةِ دُرره، من خلال التعبير عن أدق التفاصيل بأقل عدد من الكلمات والحروف في نظامٍ بديعٍ مُحْكَمٍ السَّرد دون الاخلال بالسياق القرآني في جَرْس يأخذ العقول ويذهب بالألباب، فجاء بحثي المتواضع هذا الذي هو غيض من فيض، يلقي الضَّوء على طرف يسير من هذا العِلم، وأسْمَيته: «فَتْحُ الرَّحْمن في الْكَشْفِ عَنْ فَرَائِد القُرآن الكَرِيم» «سُورة الأَنْبيَاء أُنْمُوذَجَاً».

وأسأل الله العلي القدير أنْ يُجنبنا الخطأ والزَّلل، وأسأله التَّوفِيق والسَّداد، وأنْ يكون بحثي مفيداً نافعاً للعِبادِ، كما أسْأله – ﷻ – أنْ يجعل هذا العمل صَالحاً، ولوجْهه الكريم خالِصاً، إنَّه ولي ذلك والقَادِر عليه، وهو نِعم المَولى ونِعم النَّصير، وبالإجَابة جدير، وصَلَّى الله وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى سيدنا مُحَمَّد – ﷺ –، وَعَلَى آلِه وصَحْبِه وَالْتَّابِعِينَ لهُمْ بِإحْسَانٍ إلى يوم الْدِّين.

مَنْهَجِي فِي الْبَحْث

لقَدْ تَتبَّعتُ المَنْهَجَ الاستقرائي(١)، الوصفي التحليلي(٢)، الاستنباطي(٣) في هذا البحث عن طريق جَمْعِ الفرائد من خِلالِ سورة الأنبياء، ثُمَّ تحليلها ودراستها دراسة تفسيرية، وقَدْ جاء مَنْهَجِي فِي الْبَحْثِ على النَّحو التَّالِي:

---

(١) المنهج الاستقرائي: هو منهج يقوم على التتبع لأمور جزئية مستعيناً على ذلك بالملاحظة والتجربة وافتراض الفروض لاستنتاج أحكام عامة، فَإِن كَانَ الاسْتِدْلَال فِيهَا من استقراء حكم جَمِيع الجزئيات فالاستقراء تَامّ وَإِلَّا فناقص، فهو يقوم على استقراء النصوص وقرائنها قراءة دقيقة، وجمع كل ما تيسر من النصوص التي تخدم الموضوع بعد توثيقها للوصل إلى نتيجة صحيحة. انظر: البحث العلمي، مناهجه وتقنياته، د/ محمد زيان عمر ص ٣٢، ط: جدة، السعودية ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م، ودستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون للقاضي عبد النبي الأحمد نكري ٧٢/١، عرَّبه: حسن هاني فحص، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٢١هـ، مناهج البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، د/ حلمي عبد المنعم صابر ص ٢٣ بتصرف، ط: مكتبة الإيمان، الثانية ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م.

(٢) المنهج الوصفي: تحليل ووصف ما حصل عليه الباحث من معلومات ممَّا يساعد على رصد خصائص المفردة القرآنية وبيان ملامحها، ثُمَّ إظهار هذا التَّفرُّد، وآثاره البيانية، وقيمته الجمالية. انظر: كتابة البحث العلمي صياغة جديدة، عبد الوهاب ابن إبراهيم أبو سليمان ص ٣٣، ط: دار الشروق، السادسة ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

(٣) المنهج الاستنباطي: هو الذي يربط العقل فيه بين المقدمات والنتائج، أو بين الأشياء وعللها، على أساس المنطق والتأمل الذهني، فهو يبدأ بالكليات ليصل منها إلى الجزئيات، وذلك عن طريق تحليل الآيات التي تتعلَّق بالموضوع، ثُمَّ استنباط الفوائد والعِبر والرُّؤى والأفكار من خلالها. انظر: مناهج البحث العلمي – تأليف: أ.د/ محمد سرحان علي المحمودي ص ٧٤، ٧٤ – ط: دار الكتب – الجمهورية اليمنية – صنعاء – الثالثة ١٤٤١هـ، البحث العلمي مناهجه وتقنياته ص٣٢.

أَوَّلاً: جَمعتُ الفرائد من سورة الأنبياء التي لمْ يرد ذكرها في آيات القرآن الكريم إلَّا مرة واحدة، ولم يشتق من جذرها اللُّغوي سِواها.

ثَانِيَاً: رَتَّبتُ هذه الفرائد حَسَبَ ورودها في المصحف الشريف، ذاكراً الآية ورقمها التي وردت فيها في الهامش أسفل الصفحة.

ثالثاً: قمتُ بدراسَة الفريدة بجَمْعِ أقْوال المُفسِّرين فيها مِنْ خِلال كُتُب التَّفسِير القديمة والحَديثة، ثُمَّ رَتَّبتها على هيئة أقوال مُنَظَّمة مُنَسَّقة؛ ليَسْهُل للقَارىء الوقُوف عليها، ثُمَّ خَرَّجت هذه الأقْوال من كُتُب التَّفاسِير المُعتَمَدة، ثُمَّ قُمت بالتَّرجِيح والتَّوفِيق بينها خاصة إذا كان يُوهِمُ ظاهِرها التَّعارض والتَّناقُض.

رابعاً: قمتُ بعد ذلك بالغوص في سرِّ تفرُّد هذه الفريدة ومجيئها على هذا النَّسق دون غيرها من المترادفات المماثلة لها في اللَّفظ، وما تنطوي عليه من نكاتٍ بلاغية ولمسات بيانية ولطائف جمالية وأسرار فنية، ممَّا يُؤكد إعجاز القرآن البياني والبلاغي بهذه الفرائد بين طيَّات سُوره وآياته مع تبيان السِّياقات والمواطن التي وردت فيها.

خامساً: النظر إلى الفريدة من جوانب مختلفة من ناحية جَرْسها الصوتي والحرفي، وكذا ناحية صيغتها، ومادتها، ودلالتها، وأثر ذلك على أداء المعني المُراد بدقةٍ عاليةٍ متناهيةٍ فاقت الوصف والخيال، وبلغت أقصى الحد من الإعجاز ومراتب البيان.

سادساً: دعمَّت البحث بالأحاديث النبويَّة مع تخريجها عند ورودها من مصادرها الأصْليَّة، فإن كان الحَدِيث في الصَّحِيحَين أو أحدهما اكْتَفَيْت في الحُكْمِ عليه بعَزْوِهِ إليهما أو إلى أحدهما، وإن لَمْ يكُنْ في الصَّحِيحين بَحَثت

عنه في كُتُبِ السُّنَنِ والمَسَانِيد والصِّحَاح مع الحُكْمِ عليه نَقْلاً عن المُحَدِّثِين وأَهْلِ العِلْمِ.

سابعاً: تَرْجَمْتُ لبَعضِ الأعلام الوارد ذكرهم في ثنايا هذا البَحْث، وتَرَكْت تَرجَمَة الكثير منهم؛ لشهرتهم ولئلا يطيل البحث بسَرْدِها.

ثامناً: قمتُ بشَرحِ بعض الألفاظ الغَريبة في الحاشية السُّفلِيَّة على حَسَبِ ما يحتاج إليه المَقام، مع الضَّبط لِمَا يَصعب قراءته ويُلْتَبس نطقه.

خُطَّةُ الْبَحْث:

اقْتَضتْ ظُرُوف البَحْث وطَبيعته أن يتكون من مُقدِّمةٍ وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أمَّا الْمُقَدِّمَةُ: فتشتملُ على أَسْبَابِ اخْتِياري لِهذا المَوضُوعِ، ومَنْهَجِي فِيه، وخُطَّة الْبَحْثِ.

المبحث الأول: التَّعريف بسُورَةِ الأَنْبِيَاء.

المبحث الثاني: بين يدي الفرائد.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الفرائد لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: الفرائد في الدراسات التي تعرضت لبلاغة القرآن الكريم.

المطلب الثالث: هل وقع التَّرَادُف في القرآن الكريم ؟

المبحث الثالث: فرائد سورة الأنبياء،

ويشتمل على تسعة مطالب:

المطلب الأول: الفريدة الأولى: ﴿قَصَمْنَا﴾.

المطلب الثَّاني: الفريدة الثانية: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾.

المطلب الثَّالث: الفريدة الثالثة والرابعة: ﴿رَتْقًا﴾، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

المطلب الرَّابع: الفريدة الخامسة: ﴿يَكْلَؤُكُمْ﴾.

المطلب الخامس: الفريدة السادسة: ﴿نَفْحَةٌ﴾.

المطلب السَّادس: الفريدة السابعة: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾.

المطلب السَّابع: الفريدة الثامنة: ﴿ذَا النُّونِ﴾.

المطلب الثَّامن: الفريدة التاسعة: ﴿حَدَبٍ﴾.

المطلب التَّاسع: الفريدة العاشرة: ﴿نون العظمة﴾.

الخاتمة: تتضمن أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها في هـذه الدراسة.

الفهارس: ثَبْت أهم المراجع.

المبحث الأول

التَّعريف بسُورَة الأَنْبِيَاءِ

اسمها: بعد البحث والتَّنقيب في كُتُب التَّفاسير تبيَّن لي أنَّ هذه السُّورة ليس لها إلَّا اسم واحد تُعْرَف به وهو «سُوْرَة الأَنْبِيَاء»، وهو المكتوب في المصاحف المعتمدة، بل وهو المجمع عليه عند أهل الأداء والفن، فإذا أُطْلِق هذا الاسم فلا ينصرف إلَّا على هذه السُّورة، فإذا قال القائل: قرأتُ «الأَنْبِيَاء» علم السَّامع يقينًا أنه يعني «سُوْرَة الأَنْبِيَاء»، وما ذلك إلَّا لانفرادها بهذا الاسم، فليس لها أسماء أخرى تُعرف بها، وإذا كانت كثرة الأسماء تدل على شَرَف المُسمَّى في الأعم الأغلب، فإنَّه أحيانًا يكون الانفراد فيه دلالة على الشَّرف والمكانة أيضًا خاصة إذا كان صاحبه ذا حُظْوَة وقدر مَنيف كقولك: تصفَّحتُ «الكِتاب» من أوَّله إلى آخره، تعني:كِتاب سِيبَوَيْه؛ إذ ليس له إلَّا هذا الاسم ، فإنفراده به بعد كتاب الله – ﷻ – زاد من صِيته وسُمعته، قال الطَّاهِرُ بن عَاشُور: (وَلَا يُعْرَفُ لَهَا اسْمٌ غَيْر هَذَا) (١).

وتسميتها بذلك ظاهرة؛ لاشتمالها على فضائل جمَّة من أنبياء الله – عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –، والحديث عن صبرهم وثباتهم وتضحياتهم في سبيل الله، وتفانيهم في تبليغ الدعوة، وما جرى لهم مع أقوامهم، وتأييد الله لهم، بلغ عددهم ستَّة عَشَرَ نَبياً بما فيهم أُولو العزم الخمسة: نُوح وَإِبْرَاهِيم

(١) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ٥/١٧، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤م.

وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّد – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ –، «وَلَمْ يَأْتِ فِي سُوَرِ الْقُرْآنِ مِثْلُ هَذَا الْعَدَدِ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ فِي سُورَةٍ مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ عَدَا مَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، فَقَدْ ذُكِرَ فِيهَا أَسْمَاءُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ نَبِياً، فَإِنْ كَانَتْ سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ هَذِهِ نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ الْأَنْعَامِ فَقَدْ سبقَتْ بِالتَّسْمِيَةِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَإِلَّا فَاخْتِصَاصُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِذِكْرِ أَحْكَامِ الْأَنْعَامِ أَوْجَبَ تَسْمِيَتَهَا بِذَلِكَ الِاسْمِ، فَكَانَتْ سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ أَجْدَرَ مِنْ بَقِيَّةِ سُوَرِ الْقُرْآنِ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ»(١).

والمُلاحظ أنَّ السورة افتُتحت بالحديث عن سيدنا مُحَمَّدٍ – ﷺ –، وخُتمت بالحديث عنه أيضاً وعن رسالته، فهو – ﷺ – في هذه السُّورة الفاتح الخاتم، ورسالته أعظم الرسالات وأشملها، وأمته أعظم الأُمم، ولها ارتباط وثيق بجميع الذين آمنوا بكلمة التوحيد وأذعنوا لها مستسلمين خاضعين لله رب العالمين(٢).

مَكِّية السُّورة: سُورَة الأَنْبِيَاء من السُّور المكِّيَّة المجمع عليها(٣) فِي قَوْلِ

(١) التحرير والتنوير: ١٧/٥.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد: نُخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، بإشراف: أ.د/ مصطفى مُسلم ١/٥، الناشر: كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط: الأولى ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ٣٩/١، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ٧٣/٤، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

الْجَمِيعِ كما نصَّ على ذلك الإمام الْقُرْطُبِيُّ[١].

وَنَقَلَ السُّيُوطِيُّ فِي «الْإِتْقَانِ»[٢] اسْتِثْنَاءَ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ﴾[٣]، وَلَمْ يَعْزُهُ إِلَى قَائِلٍ، ولا دليل صحيح عليه، فَالْأَرْجَحُ أَنَّ سُورَةَ الْأَنْبِيَاءِ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا؛ فعن أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ قال: سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنْ تَلْخِيصِ آيِ الْقُرْآنِ الْمَدَنِيِّ مِنَ الْمَكِّيِّ فَقَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ... وَنَزَلَتْ بِمَكَّةَ سُورَةُ الْأَعْرَافِ وَيُونُسَ وَهُودٍ وَيُوسُفَ وَالرَّعْدِ وَإِبْرَاهِيمَ وَالْحِجْرِ وَالنَّحْلِ سِوَى ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا فَإِنَّهُنَّ نَزَلْنَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فِي مُنْصَرَفِهِ مِنْ أُحُدٍ، وَسُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطه وَالْأَنْبِيَاءِ[٤].

وعن أَبِي إِسْحَاقَ قال: سمعت عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ بن قيس، سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطه وَالْأَنْبِيَاءِ: هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تَلَادِي»[٥].

قوله: «الْعِتَاقِ الْأُوَلِ»: بكسر العين المُهْمَلَة وتخفيف الفوقية جمع

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٦٦/١١، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: الثانية ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٦١/١.

(٣) الأنبياء: (٤٤).

(٤) أخرجه السيوطي في الإتقان في علوم القرآن ٣٩/١، ٤٠، وقال: هَكَذَا أَخْرَجَهُ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ بِطُولِهِ، وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، رِجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَشْهُورِينَ.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن ١٨٥/٦ برقم ٤٩٩٤، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط: دار طوق النجاة، ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

عتيق، والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقًا، والأولية باعتبار حفظها أو باعتبار نزولها؛ لأنها مكيات ومراده تفضيل هذه السور؛ لما يتضمن مفتتح كل منها بأمر غريب وقع في العالم خارق للعادة وهو الإسراء وقصة أصحاب الكهف وقصة مريم (١).

وقوله: «وَهُنَّ مِنْ تلَادِي»: بِكَسْرِ الْمُثَنَّاةِ وَتَخْفِيفِ اللَّامِ أَيْ: مِمَّا حُفِظَ قَدِيمًا وَالتِّلَادُ قَدِيمُ الْمِلك، وَمُرَاد ابن مَسْعُودٍ أَنَّهُنَّ مِنْ أَوَّلِ مَا تُعُلِّمَ ونزل مِنَ الْقُرْآنِ وَأَنَّ لَهُنَّ فَضْلًا لِمَا فِيهِنَّ مِنَ الْقَصَصِ وَأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ(٢).

عدد آياتها: مِائَة وَاثْنَتَا عَشْرَةَ آيَةً عند الكوفيين، وعند غيرهم من أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالشَّام وَالْبَصْرَة إحدى عشرة آية ومائة، اختلافهم في آيَة: ﴿مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ﴾(٣).

كلماتها: ألف ومئة وثمان وَستُّونَ كلمة.

حروفها: أَرْبَعَة آلَاف وثماني مئة وَتسْعُونَ حرفاً(٤).

ترتيبها في النزول: هِيَ السُّورَة الْحَادِيَة وَالسَّبْعُونَ فِي تَرْتِيب النُّزُولِ نَزَلَتْ بعد سورة إبراهيم، وَقَبْلَ سُورَةِ النَّحْلِ، ونزل بعدها سورة المؤمنون، ونزل بعد سُورَة الْأَنْبِيَاء اثنتا عشرة سورة من السُّور المكية، فَتَكُون مِنْ

---

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ١٩٨/٧، ط: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، السابعة ١٣٢٣هـ.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٣٨٨/٨، الناشر: دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ.

(٣) الأنبياء: (٦٦).

(٤) البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني ص ١٨٧، ت: غانم قدوري الحمد، الناشر: مركز المخطوطات والتراث، الكويت، ط: الأولى ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

أَوَاخِرِ السُّوَرِ النَّازِلَةِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ(١).

أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ عَنْ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ: أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ، فَأَكْرَمَ عَامِرٌ مَثْوَاهُ، وَكَلَّمَ فِيهِ رَسُولَ اللهِ - ﷺ -، فَجَاءَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ: إِنِّي اسْتَقْطَعْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - وَادِيًا مَا فِي الْعَرَبِ وَادٍ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ لَكَ مِنْهُ قِطْعَةً تَكُونُ لَكَ وَلِعَقِبِكَ مِنْ بَعْدِكَ، فَقَالَ عَامِرٌ: لَا حَاجَةَ لِي فِي قِطْعَتِكَ، نَزَلَتِ الْيَوْمَ سُورَةٌ أَذْهَلَتْنَا عَنِ الدُّنْيَا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾(٢).

ترتيبها في المصحف الكوفي: الحادية والعشرون.

عرض إجمالي لبعض موضوعات ومقاصد سُورَة الْأَنْبِيَاء:

تقدَّم بيان أنَّ سُورَةَ الْأَنْبِيَاء من السُّور المكِّية حيث نزلت بمكَّة المُكرمة، والمشركون يُناصِبون العداء للرَّسُول - ﷺ -، ويتفنَّنون في إيذائه والنَّيل من أتباعه، فأوردوا شُبهات وشُكُوكاً حول رسالته، فجاءت سُورَة الْأَنْبِيَاء لتُقرِّر التَّوحيد الذي أنكروه وتُدلِّل عليه بشتى الوسائل والأدلة المتنوعة، ولتردَّ على شبهاتهم حول نبوته، وتُثبِّت فؤاده - ﷺ - وقلوب

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٤٣/١، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ١٩٣/١، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الأولى ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م، ط: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، والتحرير والتنوير ٦/١٧.

(٢) حديث ضعيف: رواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ١٧٩/١، الناشر: السعادة، بجوار محافظة مصر ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م، في إسناده ضعيفان: مُوسَى بْن عُبَيْدَةَ، وعَبْد الرَّحْمَنِ بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ.
وعزاه السيوطي إلى ابْن عَسَاكِر وابْن مرْدَوَيْه. الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦١٥/٥، ط: دار الفكر، بيروت.

أصحابه – رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ – عن طريق عرض أخبار الأنبياء السابقين وكيف كانت لهم العاقبة والنَّصر والتمكين والفوز بالجِنان في الآخرة، وفيما يلي عرضٌ مُوجزٌ لما اشتملتْ عليها السُّورة من مقاصد:

أولاً: أقامت السُّورة ألواناً من الأدلة على وحدانية الله تَعَالَى وعلى شمول قدرته في الأنفس وفي الآفاق، ودحضت جانباً من تُرَّهاتهم حول عقيدة الألوهية، والرَّد على مَنْ نسب الولد لله – ﷻ –، وبيان تعاليه وغناه عن ذلك، والتنويه بفضل الملائكة، وتسخير الكون وما فيه لعباده، وإتقانه وإحكامه له، وسير الكواكب ودَوْر الفَلَك؛ ليصل إلى قانون التمانع العقلي ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا﴾(١).

قال تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٢).

وقال تَعَالَى: ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾(٣).

---

(١) الأنبياء: (٢٢).
(٢) الأنبياء: (٣٠: ٣٣).
(٣) الأنبياء: (٢٦: ٢٩).

ثانياً: صدق الرَّسُول – ﷺ – فيما يبلغه عن ربه – ﷻ –، فكما أنَّ لهذا الكون إلهاً حقاً، فلا مجال للهو في صحة الرِّسالة لصلاح الدِّين والدُّنيا معاً.

قال تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾[1].

ثالثاً: تحدثت عن قُرب مجيء يوم القيامة وأنه واقع لا محالة بأسلوب يهز القلوب، ويحملها على الاستعداد لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح، ويزجرها عن الغفلة والإعراض، مع إيراد بعض أشراط الساعة وأهوالها، وأحوال الناس فيها في آخر الزَّمان، وذلّ الكفَّار والأَوثان في دخول النيران، وعِزّ أَهل الطَّاعة والإيمان من الأَزل إلى الأَبد في جميع الأَزمان على علاليَّ الجنان، وتجسيد ذلك بصورة حيَّة متحركة كأنَّها واقعة مشاهدة ماثلة للعيان، قال تَعَالَى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ* ما يَأْتِيهِم مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[2].

وقال تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ﴾[3].

---

(١) الأنبياء: (٣٨: ٤١).

(٢) الأنبياء: (١: ٢).

(٣) الأنبياء: (٩٦: ٩٧).

وقال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾(١).

رابعاً: حكت جانباً من شبهات المشركين حول الرَّسُول - ﷺ - ودعوته، وردت عليهم بما يبطل شبهاتهم وأقوالهم، فتارة ينكرون أنْ يكون النَّبي بشراً، وتارة يتَّهمونه بالسِّحر، وثالثة يزعمون أنَّ ما جاء به أضغاث أحلام، ورابعة أنَّه اختلقه من عند نفسه، وخامسة أنَّه شاعرٌ، قال تَعَالَى: ﴿بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ﴾(٢).

خامساً: ساقت نماذج متعددة من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، تارة على سبيل الإجمال، وتارة بشيء من التفصيل، وهم حسب ترتيب ذكرهم في السُّورة: موسى وهارون، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولوط ونوح، وداود وسليمان، وأيوب وإسماعيل، وإدريس وذا الكِفل، ويونس وزكريا ويحيى، وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثُمَّ خُتمت بالإشارة إلى إرسال سيدنا مُحَمَّدٍ - ﷺ -، بالرَّأفة والرَّحمة والإحسان، وتبليغ الرِّسالة على حكم السَّويَّة من غير نقصان ولا رجحان، وطلب حكم الله تَعَالَى على وَفْق الحقِّ والحكمة(٣).

---

(١) الأنبياء: (١٠٤).

(٢) الأنبياء: (٥: ٨).

(٣) ذَكَرَ هذه المقاصد الفيروزآبادي بصورة مُجملة. انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٣١٧/١، ٣١٨، ت: محمد علي النجار، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

وبعد: فهذا عرض سريع لأهم مقاصد سورة الأنبياء قدَّمته ليكون القارئ مُلِمَّاً بصورة مُوجَزة عنها ومُعِيناً له على فهم بعض أسرارها ومقاصدها وتوجيهاتها، وهناك مقاصد أخرى يراها المُتأمل فيها، والمتدبر لآياتها، وحسْبُك من القِلادة ما أحاط بالعُنُق، ومن هذا العرض تبيَّن أنها احتوتْ على أصول العقائد، وعلى كثير من أدلة التوحيد والأُلوهية، ووجَّهتْ عنايتها إلى توجيه المشركين ومناقشتهم فيما كانوا يُثيرونه حول الرِّسالة المُحمدية من شُبهاتٍ وكشفت اللِّثام عنها مُستخدمة شتى أنواع الأدلة العقلية والبراهين المنطقية والقوانين الطبيعية.

وبالله التوفيق ،،،

****

المبحث الثاني

بين يدي الفرائد

المطلب الأول

تعريف الفرائد لُغَة واصْطِلاحًا

الفرائد في اللُّغة: نلتمس مفهوم الفرائد أوَّل ما نلتمسه بالرجوع إلى كتب المعاجم العربية؛ لنتعرَّف على وجه الدِّقة الدَّلالة اللُّغوية لهذه اللَّفظة، وهي وَاحِدَتُهَا فَرِيدَة وفريد، والفَرِيدُ والفَرائدُ: الشَّذْرُ الَّذِي يَفْصِل بَيْنَ اللُّؤْلؤ وَالذَّهَب.

والفَرِيدُ: الدُّرُّ إِذا نُظِمَ وفُصِلَ بِغَيْرِهِ، وَقِيلَ: الفَرِيدُ بِغَيْرِ هَاءٍ: الْجَوْهَرَةُ النَّفِيسَةُ كأَنها مُفْرَدَةٌ فِي نوعِها، والفَرَّادُ صانِعُها، وذَهَبٌ مُفَرَّدٌ: مَفَصَّلٌ بِالْفَرِيدِ(١).

واستفرد الغوَّاص هذه الدُّرَّة: لمْ يجد معها أخرى، وفلان يُفَصِّلُ كلامه تفصيلاً(٢).

من هذا العرض اللُّغوي لكلمة «الفرائد» نستخلص أنَّ معناها يدور حول: الشيء النفيس الذي لا نظير له سواء أكان مادياً كالذهب والدُّر، أم معنوياً كالكلام الفريد المُفصَّل الذي يأخذ العُقول ويستحوذ على الألباب.

---

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده المرسي ٣٠٨/٩، ت: عبد الحميد هنداوي، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م، ولسان العرب لابن منظور ٣٣٢/٣، ط: دار صادر، بيروت، الثالثة ١٤١٤هـ.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ١٥/٢، ت: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

قال ابن فارس: ((فَرَدَ) الْفَاءُ وَالرَّاءُ وَالدَّالُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى وُحْدَةٍ، مِنْ ذَلِكَ الْفَرْدُ وَهُوَ الْوَتْرُ، وَالْفَارِدُ وَالْفَرْدُ: الثَّوْرُ الْمُنْفَرِدُ، وَظَبْيَةٌ فَارِدٌ: انْقَطَعَتْ عَنِ الْقَطِيعِ، وَكَذَلِكَ السِّدْرَةُ الْفَارِدَةُ، انْفَرَدَتْ عَنْ سَائِرِ السِّدَرِ، وَالْفَرِيدُ: الدُّرُّ إِذَا نُظِمَ وَفُصِلَ بَيْنَهُ بِغَيْرِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ)[1].

وأمَّا مفهوم الفرائد في الاصطلاح: فذو صلة وثيقة بالمعنى اللُّغوي الذي هو أكثر شمولاً واتساعاً، ولا شكَّ أنَّ الوقوف على المعنى اللُّغوي الصَّحيح يَتْبعه معنى اصطلاحي صحيح يكون أكثر تحديداً وتخصيصاً.

وقد ذكر أهل العلم أنَّ أوَّل مَنْ أورد مُصطلح الفرائد ابن أبي الإصْبع المصري (ت ٦٥٤هـ) في كتابه «تحرير التحبير» تحت عنوان «باب الفرائد»، وذكر أنَّ هذا الباب مختص بالفصاحة وحدد المصطلح بأنَّه: «إتيان المتكلم بلفظة تتنزل من كلامه منزلة الفريدة من حب العقد تدل على عظم فصاحته وقوة عارضته، وشدة عربيته، حتى إنَّ هذه اللَّفظة لو سقطت من الكلام لعزَّ على الفصحاء غرامتها أي: خسرانها وفقدانها، ثُمَّ استشهد على ذلك بفرائد من شعر أبي نَواس وأبي تمَّام والبُحْتُري، فمن ذلك قول أبي نواس:

وكأنَّ سُعدي إذ تُودِّعُنَا ∴ وقد اشْرَأبَّ الدَّمْعُ أنْ يكِفَا [2]

---

(١) معجم مقاييس اللُّغة ٤/٥٠٠، ت: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

(٢) ديوان أبي نواس «الحسن بن هانئ»، تحقيق وشرح: أحمد عبد المجيد الغزالى ص ٤٣٢، ط: دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٨٤م. واشْرَأبَّ الدَّمْعُ: ارتفع من شؤنه ليسيل وينحدر على الخد، وأصل اشرأب: مدَّ عُنُقه وارتفع كي ينظر، =

فلفظة «اشْرَأبَّ» من الفرائد التي لا نظير لها في فصيح الكلام، ولا يقع مثلها إلَّا على سبيل النُّدور.

ثُمَّ استشهد من القرآن بآيات كثيرة مُصَدِّراً لذلك بأنَّ ما جاء في الكتاب العزيز من غرائب يعز حصرها، منها قوله – ﷻ –: ﴿فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ﴾(١)، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾(٢)، فألفاظ هذه الجملة كلها فرائد معدومة النظائر، وكقوله – ﷻ –: ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾(٣)، فانظر إلى لفظة "فُزِّعَ" وغرابة فصاحتها، تعلم أنَّ الفكر لا يكاد يقع على مثلها، وكقوله– تَبَارَكَ وتَعَالَى –: ﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(٤)، وهذه الفريدة في هذه الآية أعجب من كل ما تقدم، فإن لفظة "خائِنَةَ " سهلة مستعملة، كثيرة الجريان على ألسُن الناس، لكن على انفرادها، فلما أضيفت إلى "الْأَعْيُنِ" حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الموقع العظيم بحيث لا يستطاع الإتيان بمثلها، ولا يكاد يقع في شيء من فصيح الكلام شبهها

= والمعنى: أنه في لحظة الوداع ارتفع الدَّمع وسال علي الخد، ولعل السِّر في تفرُّد الفعل: «اشْرَأبَّ» هنا يرجع إلي تشخيصه وبعث الحياة والحركة فيه وجعله يحس ويتمني، والمُشبه به ورد في البيت الثانى هو:

رشَأ تَوَاصَيْنَ القِيَانُ بِهِ ∴ حتى عَقَدْنَ بِأُذْنِهِ شَنَفَاً

(١) الصافات: (١٧٧).

(٢) يوسف: (٨٠).

(٣) سبأ: (٢٣).

(٤) غافر: (١٩).

وأشباه ذلك في الكتاب العزيز لا يدخل تحت الحصر»[1].

مِمَّا سبق تبيَّن أنَّ مُصطَلَح «الفرائد» في القرآن الكريم تعني: تلك الكلمات التي اكتسبت صفة الفردية بدايةً؛ لكونها كلمات قرآنية انتظمت في سلك النظم القرآنى البديع وتعلقت بما قبلها وما بعدها تعلقاً قويًّاً، بحيث لا يغني غيرها غناءها في موضعها، وبحيث لو سقطتْ عَزَّ على الفُصَحَاء غرامتها كما يقول ابن أبي الإصْبع، ثُمَّ هي اكتسبت ثانياً صفة أخرى أكثر تخصيصاً وتقييداً وهي كونها «فَذَّة» أي: مُتفرِّدة لم ترد في القرآن الكريم إلَّا مرَّة واحدة ولم تتكرر في أي سياق آخر رُغْمَ تشابه السِّياقات أحياناً[2].

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع ص ٥٧٦، ٥٧٧، تقديم وتحقيق: د/ حفني محمد شرف، ط: الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

(٢) بلاغِة الفَرائِد الفَذَّة في القُرآن الكريم المُضَارع نَمُوذجاً، تأليف: الدكتور/ كمال عبد العزيز إبراهيم ص ٦، النَّاشر: الدَّار الثَّقافِيَّة للنشر، القاهرة، ط: الأُولى ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.

المطلب الثاني

الفرائد في الدراسات التي تعرضت لبلاغة القرآن الكريم

من خلال البحث والتَّنقيب عن المؤلفات التي أُعدَّت في الفرائد تبيَّن لي أنَّها يمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: كتب تعرضت لبلاغة آي الذِّكر الحكيم، لكن من خلال الوقوف عليها والقراءة فيها لم أجد فيها حديثاً خاصاً أو مُسْتَقِلاً عن «الفرائد» كما سيتم دراسته في هذا البحث، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى البصري (ت ٢٠٩هـ).
- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت ٢٠٧هـ).
- إعراب القرآن لأبي جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن يونس المرادي النحوي (ت ٣٣٨هـ).
- تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ).
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى: «إعجاز القرآن ومعترك الأقران» لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).
- إعجاز القرآن للباقلاني لأبي بكر الباقلاني محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ).
- أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ).

القسم الثاني: الفرائد عند مَنْ أفرد لها أبواباً خاصة:

لقد وُجِدَ من أهل العلم مَنْ تَعرَّض للحديث عن الفرائد، وها أنا ذا أُوجِز

الكلام عن بعض هذه الدراسات القديمة والحديثة ومنها:

١. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ).
٢. شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع لصفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ).
٣. خزانة الأدب وغاية الأرب للحموي (ت ٨٣٧هـ)، وقد تحدَّث المُؤلِّف عن «الفرائد» فقال: (الفرائد: نوع لطيف مختص بالفصاحة دون البلاغة؛ لأنَّ المراد منه أن يأتي الناظم، أو الناثر، بلفظة فصيحة من كلام العرب العرباء تتنزل من الكلام منزلة الفرائد من العقد، وتدل على فصاحة المتكلم بها، بحيث أن تلك اللفظة لو سقطت من الكلام لم يسد غيرها مسدها، كقوله تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[١]، قوله تَعَالَى: ﴿الرَّفَثُ﴾ فريدة لا يقوم غيرها مقامها، وكقوله تَعَالَى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾[٢]، فقوله – ﷺ –: ﴿أَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ فريدة يعز على الفصحاء أن يأتوا بمثلها في مكانها)[٣].

ثُمَّ ذكر أمثلة أخرى من الشعر، وهو قد ذكر مصطلح الفرائد، لكن تناوله لها مختلف عما نحن بصدده، بالإضافة أنه لم يُحْصِها عدداً، ولم

---

(١) البقرة: (٢٨٧).
(٢) طه: (١٨).
(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب ٢٩٧/٢، ت: عصام شقيو، ط: دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار البحار ٢٠٠٤م.

يُفصح عن النِّكات والأسرار البلاغية التي انْطوتْ عليها الفريدة القرآنية.

٤. أنوار الربيع في أنواع البديع لصدر الدين المدني (ت ١١١٩هـ)، وقد أشار إلى «الفرائد» مُردِّداً كلام من سبقه من العلماء قائلاً: (هذا النوع يختص بالفصاحة دون البلاغة؛ لأنه عبارة عن الإتيان بلفظة فصيحة، تتنزل منزلة الفريدة من القصيدة، وهي الجوهرة التي لا نظير لها، تدل على عظم فصاحة المتكلم وقوة عارضته، وجزالة غريبته، بحيث لو أسقطت من الكلام عري من الفصاحة، كقوله تعالى: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾[١]، فلفظة ﴿حَصْحَصَ﴾ فريدة، يعسر على الفصحاء الإتيان بمثلها في مكانها)[٢].

٥. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور/ أحمد مطلوب، وقد تطرق الكاتب إلى «الفرائد»، وساق الأمثلة نفسها التي ذكرها الأولون، وهذا الكلام نفسه الذي ردَّده في كتابه: «معجم النقد العربي القديم»[٣].

٦. مفاريد الألفاظ في القرآن الكريم «دراسة لغوية» للباحث/ محمود عبد الله عبد المقصود يونس، رسالة ماجستير- جامعة الأزهر- مصر ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.

---

(١) يوسف: (٥١).

(٢) أنوار الربيع في أنواع البديع «مخطوط»، تأليف: صدر الدين المدني، الشهير بابن معصوم ص ٦٧٢، ٦٧٣، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط: النعمان، النجف الأشرف، العراق، ط: الأولى.

(٣) معجم النقد العربي القديم للدكتور/ أحمد مطلوب ص ١٦٠، ١٦١، ط: دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ط: الأولى.

في هذه الدراسة تناول الباحث المفاريد القرآنية من الناحية اللُّغوية البحتة أي من الناحية الصوتية والصرفية والدلالية والمعجمية، وكذا من جهة فقه اللُّغة في هذه المفاريد، ثُمَّ تتبعها كلها واستقصاها في القرآن الكريم وأردف لها معجماً خاصاً في نهاية بحثه.

٧. بلاغِة الفَرائِد الفَذَّة في القُرآن الكريم المُضَارع نَمُوذجاً – للدكتور/ كمال عبد العزيز إبراهيم – ط: الدَّار الثَّقافِيَّة للنشر ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م، وفي دراسته شرح الباحث أولاً عنوان بحثه، ثُمَّ أحصاها عدداً، وجمعها من القرآن الكريم مثبتاً إياها في ملحق خاص في آخر الكتاب، ثم بيَّن أسباب اقتصاره على المضارع في هذه الدراسة.

٨. مِن بلاغَةِ الفَرائِدِ الفَذَّةِ في القُرآن الكرِيم الفِعل الماضِي نَمُوذَجاً للدكتور/ السَّيِّد مُحَمَّد سَالِم، الأستاذ المُساعِد بقسم اللُّغة العربية جامعة المَدِينة العَالمِيَّة – مجلّة جامعة المَدِينة العَالمِيَّة "مجمَع" – العدد: العاشِر ٢٠١٤م، وقد اقتصر الكاتب على دراسة بعض الفرائد التي وردت بصيغة الفِعل الماضِي.

٩. فرائِد الأسماء الفَذَّةِ في القُرآن الكريم «سُورة مَريم» نَمُوذَجاً للدكتور/ السَّيِّد مُحمَّد سالِم سَالِم العَوضِي – قِسم اللُّغة العربيَّة – كُليَّة اللُّغات – جامعة المَدِينة العَالَميَّة – ماليزيا – مجلَّة المَخْبَر– أبحاث في اللُّغة والأدب الجزائِري – جامعة بَسكَرة – الجزائِر – العدد الثَّاني عشر ٢٠١٦.

١٠. الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، تأليف: أ.د/ عبدالله عبدالغني سرحان – الناشر: الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم «تدبر» – مركز

التدبر للإستشارات التربوية والتعليمية – المملكة العربية السعودية – الرياض، ط: الأولى ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م.

وقد تناول المؤلف دراسة فرائد بعض القصص القرآنية كقصة مُوسَى وعِيسَى – عَلَيْهِما السَّلَامُ –، ذاكراً النواحي الجمالية والفنية التي اشتملت عليها الفرائد، وهو يُعدُّ من أفضل ما كُتب حديثاً في هذا المجال حسْب ما وقفتُ عليه، والله أعلم.

١١.الألفاظ الوحيدة في القرآن وسر إعجازها للدكتور/ عاطف المليجي – دار حورس للطباعة والنشر عام ٢٠٠٢م – القاهرة.

وهو كتيب صغير ذكر فيه الباحث أكثر فرائد القرآن الكريم حوالي «ثلاثمائة وإحدى وسبعين» فريدة، كل فريدة مصحوبة بذكر معناها المعجمي بإيجازٍ شديدٍ، ولم يتطرق البتة لأي لمحة بيانية أو خصيصة جمالية في تلك الفرائد، وهذا يتناقض مع عنوان البحث الذي يشير بأنه درس هذه الألفاظ دراسة بلاغية مُبيناً وكاشفاً عن أسرار إعجازها وهذا ما لم يحدث(١).

أقول: بعد عرض ما سبق ظهر للباحث ما يلي:

أولاً: أنَّ ما صُنِّفَ وأُلِّف في باب فرائد القُرآن الكريم شيء قليل بالنسبة للدراسات القرآنية من الناحية التفسيرية البحتة، لكنني ذَكَرْتُ بعض ما ورد من مُؤلفاتٍ؛ ليكون القارىء على معرفة وإلمام بجانِبٍ منها إذا ما أراد الوُقُوف على يختصُّ بهذا الباب.

(١) الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية – أ.د/ عبد الله سرحان ص ١٩، ٢٠.

ثانياً: أنَّ جُلَّ هذه الدراسات لم تقم بدراسة هذه الفرائد دراسة تفسيرية تتجلى من خلالها أسرار وبلاغة وإعجاز القرآن وذلك من خلال البحث والتَّعمق في مكامن اللَّفظة وأسرار مجيئها على هذا النَّسق، فهم لم يتطرقوا إلى الغوص في هذه الفرائد بشكل واضح ومباشر، بل كان التَّعرض لها من خلال نظرة كُليِّة عامة شاملة لألفاظ القرآن ووصفها بالجزالة والفصاحة والبلاغة، دون الوقوف عند كل لفظة وفحصها ودراستها دراسة متأنية.

ثالثاً: لم يكن حظ القرآن الكريم في هذه المؤلفات غالباً إلَّا الاستشهاد والتدليل على صحة ما يذهبون إليه من خلال الآيات التي تتَّفق مع الشاهد الشعري.

رابعاً: ليس هناك بحث مُستقلٌّ تطرَّق إلى «فَرَائِد سُورة الأَنْبِيَاء» وعالجها من الناحية التفسيرية؛ لذا شرعتُ في جمع فرائد هذه السُّورة الكريمة، وعكفْتُ على دراستها دراسة تفسيرية مَحْضَة من خلال هذه الدِّراسة.

المطلب الثالث

هل وقع التَّرَادُف في القرآن الكريم ؟

قبل الشروع في موضوع الدراسة يجدر بي الإشارة سريعاً إلى مسألة إثبات أو نفي التَّرَادُف في آي الذكر الحكيم خاصة أنَّ البحث يتناول المفردة القرآنية التي وردت مرَّة واحدة في كتاب الله تَعَالَى، وهذا قد يُثِير في الذِّهن عند البعض: لماذا وضعت هذه الفريدة دون ما يُرادفها أو ما يُقاربها من الألفاظ ؟ إذ اللُّغة تسع ذلك.

لقد تباينت أراء علماء العربية القدامى والمحدثين في وقوع ظاهرة التَّرادف في اللُّغة على مذهبين:

الأول: ذهب كثير من أهل اللُّغة إلى أنَّ التَّرَادُف ثابتٌ وواقعٌ فيها[1]، ومِن هؤلاء المُثبتين: ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)[2]، الأصمعي (ت ٢١٣هـ)[3]، سيبويه (ت ١٨٠هـ)[4]، ابن جني (ت ٣٩٢هـ)[5]، الفيروزآبادي (ت

(١) انظر: إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني ٦٥/١، ت: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق، كفر بطنا، الناشر: دار الكتاب العربي، ط: الأولى ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

(٢) انظر قوله: المزهر في علوم اللُّغة وأنواعها للسيوطي ٣١٨/١، ت: فؤاد علي منصور، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

(٣) انظر قوله: الصاحبي في فقه اللُّغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لابن فارس ص ٢٢، ط: محمد علي بيضون، ط: الأولى ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.

(٤) انظر قوله: الكتاب ص ٢٤، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الثالثة ١٤٠٨هـ.

(٥) انظر قوله: الخصائص ٤٧٠/٢، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الرابعة.

٨١٧هـ)[١]، قُطرب (ت ٢٠٦هـ)[٢]، ابن سِيده (ت ٤٥٨هـ)[٣]، الرماني (ت ٣٨٤هـ)[٤]، المُبرد (ت ٢٨٥هـ)[٥]، عبدالرحمن الهمذاني (ت نحو ٣٢٠هـ)[٦] وغيرهم من أهل العلم.

الثاني: ذهب بعضهم إلى إنكار التَّرَادُف في اللُّغة، وأوجبوا البحث عن فروق دقيقة بين الألفاظ المتقاربة، وقالوا إنَّ الْأَصْلَ عِنْدَ تَعَدُّدِ الْأَسْمَاء تَعَدُّدُ الْمُسَمَّيَات وَاخْتِصَاص كُلِّ اسْمٍ بِمُسَمًّى غَيْر مُسَمَّى الْآخَر[٧]، ومِن هؤلاء: ابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ)[٨]، أبو العباس ثعلب (ت ٢٩١هـ)[٩]، ابن الأنباري

---

(١) انظر: المزهر في علوم اللُّغة وأنواعها ٣٢٠/١.

(٢) انظر قوله: الأضداد لابن الأنباري ٨/١، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: المكتبة العصرية، صيدا ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

(٣) انظر قوله: المخصص ١٧٤/٤، ت: خليل إبراهم جفال، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

(٤) الألفاظ المترادفة المتقاربة في المعنى لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت: ٣٨٤هـ)، ت: د/ فتح الله صالح علي المصري، ط: دار الوفاء، المنصورة، الأولى ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

(٥) انظر: ما اتَّفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد للمبرد ص ٢.

(٦) انظر: الألفاظ الكتابية في علم العربية لعبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٩٩١م.

(٧) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٢٣/١، المحقق: عبد الرزاق عفيفي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، لبنان.

(٨) انظر قوله: الأضداد لابن الأنباري ٧/١.

(٩) انظر: المزهر في علوم اللُّغة وأنواعها ٣١٧/١.

(ت ٣٢٨هـ)، أبو هلال العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ)، أبو الحسين أحمد ابن فارس (ت ٣٩٥هـ)[١]، وغيرهم من أهل اللُّغة [٢].

ومن خلال القراءة والبحث في اختلاف العلماء حول وجود ظاهرة التَّرادف في اللُّغة تبيَّن لي أمران:

أولهما: ليس كل ما ادعي فيه التَّرَادُف مترادفاً في الحقيقة؛ لوجود فروق ظاهرة بينها لمن يُدقِّق النظر فيها.

ثانيهما: ليس كل ما نفي التَّرَادُف فيه ليس بمترادف؛ لأنَّه بالنظر إلى الواقع يتبيَّن أنَّ هناك ألفاظاً مُتَّحدة في الذات، والماصدق، والصفة، وهي التي تسمَّى بالمترادفة، ولكنها قليلة جداً، ومن التَّكلف إيجاد فروق بينها[٣].

قال الزركشي: (والحاصلُ أنَّ مَن جَعَلَها مُتَرَادِفَةً نَظَرَ إلى اتِّحَادِ دلالتِها على الذاتِ، ومَن مَنَعَ نَظَرَ إلى اختصاصِ بعْضِها بمزيدِ معنًى، فهي تُشْبِهُ المُتَرَادِفَةُ في الذَّاتِ، والمُتَبَايِنَةُ في الصفاتِ) [٤].

وقال الغزالي: (قَدْ تَلْتَبِسُ الْمُتَرَادِفَةُ بِالْمُتَبَايِنَةِ، وَذَلِكَ إِذَا أُطْلِقَتْ أَسَامٍ مُخْتَلِفَةٌ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِاعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ رُبَّمَا ظُنَّ أَنَّهَا مُتَرَادِفَةٌ كَالسَّيْفِ

(١) انظر قوله: الصاحبي في فقه اللُّغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ص ٥٩.

(٢) انظر: التَّرادف في القرآن الكريم «بين النظرية والتطبيق»، محمد نور الدين المنجد ص ١٥: ١٢٦، ط: دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الأولى ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.

(٣) انظر: التَّرَادُف في القرآن الكريم، أ.د/عثمان محمد غريب ص ٢٢، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، السنة السادسة، العدد: ١٢، يوليو ٢٠١٥م.

(٤) تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي ٤٢١/١، ت: د/ سيد عبد العزيز، د/ عبد الله ربيع، ط: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، توزيع المكتبة المكية، الأولى ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

وَالْمُهَنَّدِ وَالصَّارِمِ، فَإِنَّ الْمُهَنَّدَ يَدُلُّ عَلَى السَّيْفِ مَعَ زِيَادَةِ نِسْبَةٍ إِلَى الْهِنْدِ فَخَالَفَ إِذًا مَفْهُومُهُ مَفْهُومَ السَّيْفِ، وَالصَّارِمِ يَدُلُّ عَلَى السَّيْفِ مَعَ صِفَةِ الْحِدَّةِ وَالْقَطْعِ لَا كَالْأَسَدِ وَاللَّيْثِ) [1].

وكما اختلف أهل اللُّغة في التَّرَادُف من جهة إثبات وقوعه أو نفيه، كذا وقع خلاف بين المشتغلين بعلوم القرآن، فمنهم مَن قال بوقوعه في كتاب الله تَعَالَى كابن العربي (ت ٥٤٣هـ)[2]، وكان عندهم غير مقصود لذاته، بل كان وسيلة وأداة لخدمة القرآن وفهم علومه، وضرورة دعتهم إليها الأحرف السَّبعة، والتوكيد، والمتشابه ... الخ، ولهذا اقتصرتْ مباحث التَّرادف عندهم على ما يؤدي الغرض ويوفي بالقصد، ومنهم مَن أنكر وقوعه فيه وآثر القول بالتباين ما أمكن، والتمس فروقاً دقيقة بين كلمات يظن بها التَّرادف كابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)[3]، الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)[4]، ابن عطية الأندلسي (ت

---

(١) المستصفى من علم الأصول ص ٢٧، ت: محمد عبد السلام عبد الشافي، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

(٢) انظر: أحكام القرآن ٢٢٠/٤، ت: محمد عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، الثالثة ١٤٢٤هـ.

(٣) انظر قوله في تعدُّد أسماء القرآن الكريم: جامع البيان في تأويل القرآن ٩٤/١، ت: أحمد محمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

(٤) انظر مثلاً قوله في مقدمة تفسيره: تفسير الراغب الأصفهاني ٢/١، تحقيق ودراسة: د/ محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب، جامعة طنطا، ط: الأولى ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م، وفي كتابه: المفردات في غريب القرآن بيَّن كثيراً من الفروق بين بعض الألفاظ التي قيل بترادفها.

٥٤٢هـ)[١]، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)[٢]، ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)[٣]، القرطبي (ت ٦٧١هـ)[٤] وغيرهم، وبعضهم أثبته في أصل اللُّغة، وأنكره في درجات الفصاحة والبلاغة من حيث الحسن والقبيح كالدكتور/ حسن ضياء الدين عتر (ت ١٤٣٢هـ)[٥] الذي تبنَّى رأي ابْن الْأَثِير (ت ٦٣٧هـ) في أنَّ الألفاظ تجري مجرى النَّغمات والطُّعوم من حيث حُسنها وقبيحها، وإنْ ترادفت على معنى واحد[٦]، وبعضهم أنكر التَّرادف في أصل اللُّغة إلَّا أنْ يجيء من لغتين كعائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت ١٤١٩هـ)[٧]، وكان إنكاره للتَّرادف في كتاب الله أشدّ، والتمس فروقاً أيضاً بين بعض ألفاظ من كتاب الله تَعَالَى، واعترف بقصوره عن لمح فروق بين كثير من الألفاظ[٨].

---

(١) انظر قوله في مقدمة تفسيره عن إعجاز القرآن، وقوله في الفرق بين «الأصم والأبكم». المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥٢/١، ١٠٠.

(٢) انظر قوله في الفرق بين «الأمت والعوج». الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٨٨/٣، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الثالثة ١٤٠٧هـ.

(٣) انظر قوله في الفرق بين «الشرعة والمنهاج». تفسير القرآن العظيم ١١٧/٣، ت: محمد حسين شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٩هـ.

(٤) انظر قوله في الفرق بين «البأساء والضراء». الجامع لأحكام القرآن ٤٢٤/٦.

(٥) انظر: المعجزة الخالدة للدكتور/حسن ضياء الدين عتر ص ٢٠٢، ط: دار البشائر الإسلامية، الثالثة: ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

(٦) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ١٧٠/١، ت: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، ط: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.

(٧) انظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق لعائشة عبد الرحمن ص ٢١٠، ط: دار المعارف، الثالثة.

(٨) انظر: التَّرادف في القرآن الكريم «بين النظرية والتطبيق» ص ١٢٠، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦، التَّرَادُف في القرآن الكريم، عثمان غريب ص ٢٤.

الرَّأي الرَّاجح:

أقول: وبعرض هذه المسألة على كتاب العربية الأعظم -القرآن الكريم- وبتتبع الألفاظ التي جاءت في سياقات مختلفة نجد أنَّ القرآن يستعمل المفردة لدلالة معينة لا يؤديها لفظ آخر، في حين أنَّ أداء هذا المعنى تحشد له كتب المعاجم اللُّغوية وكتب التفاسير عدداً قلَّ أو كثُر من الألفاظ، فالقول بوجود التَّرَادُف الكامل ينبغي أن يُخصَّص باللُّغة، ولا يتعدَّى إلى ساحة القرآن الكريم؛ لأنَّ ألفاظه قد نُسجت بعناية فائقة واختيرت بدقَّة عالية، فلو حذفتَ منه كلمة ثُمَّ ذهبتَ تُفتِّش في اللِّسان العربي لتضع كلمة آخرى بدلاً عنها ما استطعتَ إلى ذلك سبيلاً ولأعياك ذلك، ولفقد تلك الحلاوة والطَّلاوة التي تُميِّزه عمَّا سواه، قال تَعَالَى: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(١)، وقال تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُن حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾(٢)

وقد ألَّف الحكيم الترمذي (المتوفى بعد ٣١٨هـ). كتاباً سمَّاه: «الفروق ومنع التَّرادف» بيَّن فيه الفروق بين بعض الكلمات المتقاربة في القرآن(٣)، وأتبعه بكتاب آخر أَسْماه: «تحصيل نظائر القرآن»(٤).

---

(١) هود: (١).

(٢) النمل: (٦).

(٣) الفروق ومنع التَّرادف، تأليف: أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، ت: محمد إبراهيم الجيوشي، ط: النهار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ١٤١٩هـ=١٩٩٨م.

(٤) تحصيل نظائر القرآن، للحكيم الترمذي، تحقيق وضبط: حسني نصر زيدان، ط: الأولى ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م.

كما أفرد الزركشي في«البرهان» بابًا بعنوان: «قَاعِدَةٌ فِي أَلْفَاظٍ يُظَنُّ بِهَا التَّرَادُفُ وَلَيْسَتْ مِنْهُ»، وَلِهَذَا وُزِّعَتْ بِحَسَبِ الْمَقَامَاتِ فَلَا يَقُومُ مُرَادِفُهَا فِيمَا اسْتُعْمِلَ فِيهِ مَقَامَ الْآخَرِ فَعَلَى المفسر مراعاة الِاسْتِعْمَالَاتِ، وَالْقَطْعُ بِعَدَمِ التَّرَادُفِ مَا أَمْكَنَ؛ فَإِنَّ لِلتَّرْكِيبِ مَعْنًى غَيْرَ مَعْنَى الْإِفْرَادِ، وهذا ما ذكرناه عليه أكثر الأصوليين من أنَّه لا ترادف في التراكيب، وإنَّما خارج التراكيب يجوز أن يكون للكلمة مرادف يُستخدم، أمَّا في الاستخدام لا تستخدم إلَّا ما يؤدي المراد في سياقه(١).

وناقش كثيرٌ من المعاصرين مسألة التَّرادف، وبيَّنوا الفروق الدقيقة بين ألفاظ قرآنية اعتبرها آخرون مترادفة(٢).

هذا، والمقام يضيف بسرد أدلة العلماء ومناقشتها في ظاهرة التَّرادف، لكنني اكتفيتُ بالإشارة إلى آراء العلماء على جهة الإيجاز منعاً للإطالة والإطناب، ومَن أراد الاستزادة فعليه الرجوع إلى كتب اللُّغة وأصول الفقه حيث فصَّلت تلك القضية. والله أعلم ،،،

(١) البرهان في علوم القرآن ٧٨/٤.

(٢) منهم: د/ محمد عبد الرحمن الشايع في كتابه: «الفروق اللُّغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم »، د/ محمد فضل عباس في كتابه: «إعجاز القرآن الكريم»، د/ عبد الفتاح لاشين في كتابه: «من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة»، وغيرهم من الأساتذة الأفاضل.

المبحث الثالث

فرائد سورة الأنبياء

المطلب الأول

الفريدة الأولى: ﴿قَصَمْنَا﴾

قبل أن أُجلِّي أسرار هذه الفريدة يجدر ذكر أقوال أهل التفسير فيها، وقد ذكروا فِي مَعنَى «قَصَمْنَا» فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾[1] ثلاثة أقوال:

الأَوَّلُ: أَهْلَكْنَا من قرية بالعذاب في الدُّنيا قبل أهل مكة، وهذا تفسير مُقَاتِل بْن سُلَيْمَانَ (ت ١٥٠هـ)[2]، ويَحْيَى بْن سَلَّامٍ (ت ٢٠٠هـ)[3]، ومُجَاهِد (ت ١٠٤هـ)، والسُّدي[4]، وابْن جُرَيْج[5]،

---

(١) الأنبياء: (١١).

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٧٢/٣، ت: عبد الله محمود شحاته، ط: دار إحياء التراث، بيروت، الأولى ١٤٢٣هـ.

(٣) تفسير يحيى بن سلام ٣٠١/١، تقديم وتحقيق: د/ هند شلبي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

(٤) هو أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السُّدي، وهو: السُّدي الكبير القرشي، كان بيَّاع في سدة، باب: الجامع، بالكوفة فسُمِّي بذلك، صدوق يَهِم، رأى الحسن بن علي بن أبي طالب، وابن عمر، وأبا سعيد الخدري، وأبا هريرة -ﷺ-، ولم يرو عنهم، توفي سنة سبع وعشرين ومائة في ولاية بني مروان. انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ١٣٢/٣، ت: د/ بشار عواد معروف، ط: الرسالة، بيروت، الأولى ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

(٥) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو الوليد، فقيه الحرم المكي، إمام أهل =

وابْن زَيْدٍ [١].

الثَّانِي: عذبنا، وهذا قول مُحَمَّد بْن السَّائب الْكَلْبِي (ت ١٤٦ هـ)[٢].

الثَّالِثُ: أذهبنا، يقال قصم اللَّه عُمرَ الكافِر أي أذْهبَهُ، وهذا قول الزَّجاج (ت ٣١١ هـ) [٣].

وهذه الأقوال مُتَقَارِبَة في المعنى ولا تعارض بينها، وهي من قبيل اختلاف التَّنوع لَا اخْتِلَافِ التضَاد[٤]، أو ما يُشبه التفسير بالمثال، فالأقوال وإنْ

= الحجاز في عصره، ثقة جليل القدر كثير الحديث جدًا، ولد بمكة سنة ٨٠هـ، توفي سنة ١٥٠هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٢٥/٦، ت: مجموعة من المحققين بإشراف: شعيب الأرناؤوط، ط: الرسالة، الثالثة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م، طبقات المفسرين للداوودي ٣٥٨/١، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير ٤١٧/١٨، والوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٢٣١/٣، ت: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، قدمه: أ.د/ عبد الحي الفرماوي، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م، وابْن زَيْدٍ هو: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولاهم، المدني، محدث مفسر، كان في نفسه صالحًا، وفي الحديث ذاهبًا، روى عن أبيه زيد بن أسلم، ضعيف من الثامنة، مات سنة اثنتين وثمانين ومائة. ينظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢٣٣/٥، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن، الهند، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى ١٢٧١هـ = ١٩٥٢م، تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني ص ٣٤٠، ت: محمد عوامة، ط: دار الرشيد، سوريا، الأولى١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٢٣١/٣.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣٨٦/٣، ت: عبد الجليل عبده شلبي، ط: عالم الكتب، بيروت، الأولى ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

(٤) معنى اخْتِلَاف تَنَوُّعٍ لَا اخْتِلَاف تَضَادّ: هو صنفان أحدهما: أن يعبر وَاحِد مِنْهُمْ عَن الْمُرَادِ بِعِبَارَةٍ غَيْرَ عِبَارَةِ صَاحِبِهِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى فِي الْمُسَمَّى غَيْرَ الْمَعْنَى الْآخَرِ =

اخْتَلَفَتْ ألفاظها وتعدَّدت تَعبيراتها، لكنَّها متفقة في أداء المُراد؛ إذ القَصْم يستلزم الإهلاك والعذاب والإذهاب بالشيء حتى لا يبقى منه أثر ولا عين.

- وهنا سؤال مُفاده: ما سر مجيء هذه اللَّفظة فريدة وحيدة في القرآن الكريم مادة وصيغة ؟

والجواب - والله أعلم- أنَّ لتلك الفريدة أسراراً جمَّة منها:

- لعلَّ الوقوف على الدلالة اللُّغوية في الفريدة تُعطيك معان كثيرة:

القَصْمُ: دَقُّ الشَّيْءِ، يُقَالُ لِلظَّالِمِ: قَصَمَ اللَّهُ ظَهْرَهُ(١).

والقَصْمُ: كسر الشَّيْء الشَّديد حَتَّى يَبين، يُقَالُ مِنْهُ: قَصَمْت الشَّيْءَ إِذا كسرتَه حَتَّى يَبِينَ، وَمِنْهُ قِيلَ: فُلَانٌ أَقْصَمُ الثَّنِيَّة إِذَا كَانَ مُنْكَسِرَهَا(٢)، ورجل

= مَعَ اتِّحَادِ الْمُسَمَّى كَتَفْسِيرِهِمْ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ: بِعْضٌ بِالْقُرْآنِ أَيِ: اتِّبَاعُهُ، وَبَعْضٌ بِالْإِسْلَامِ فَالْقَوْلَانِ مُتَّفِقَانِ؛ لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ كُلٌّ مِنْهُمَا نَبَّهَ عَلَى وَصْفٍ غَيْرِ الْوَصْفِ الْآخَرِ، الثَّانِي: أَنْ يَذْكُرَ كُلٌّ مِنْهُمْ مِنَ الِاسْمِ الْعَامِّ بَعْضَ أَنْوَاعِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ وَتَنْبِيهَ الْمُسْتَمِعِ عَلَى النَّوْعِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْحَدِّ الْمُطَابِقِ لِلْمَحْدُودِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ مِثَالُهُ مَا نُقِلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ فاطر: (٣٢)، فالسَّابِقُ: الذي يصلي أَوَّلَ الْوَقْتِ، وَالْمُقْتَصِدُ: الَّذِي يُصَلِّي فِي أَثْنَائِهِ، وَالظَّالِمُ: لِنَفْسِهِ الَّذِي يُؤَخِّرُ الْعَصْرَ إِلَى الِاصْفِرَارِ. انظر: الإتقان في علوم القرآن ٢٠٣/٤، ٢٠٤.

(١) لسان العرب ٤٨٥/١٢.

(٢) انظر: الصحاح تاج اللُّغة وصحاح العربية للجوهري ٢٠١٣/٥، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين، الرابعة ١٤٠٧هـ ، والمحكم والمحيط ٢١٩/٦.
وَالثَّنِيَّةُ: مِنْ الْأَسْنَانِ جَمْعُهَا ثَنَايَا وَثَنِيَّاتٌ: وَفِي الْفَمِ أَرْبَعٌ، وَالثَّنِيُّ الْجَمَلُ يَدْخُلُ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ وَالنَّاقَةُ ثَنِيَّةٌ. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ٨٥/١، ط: المكتبة العلمية – بيروت.

قَصِمٌ: هار ضعيف سريع الانكسار[١].

فالكلمة جاءت في سياق الشيء الشديد الصَّلب القوي الذي لا يُقْهر في كثيرٍ من الأحيان ولا يقدر عليه إلَّا الله – ﷻ –، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – ﷺ –: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ –، قَالَ: ...، وَالفَاجِرُ كَالأَرْزَةِ صَمَّاءُ مُعْتَدِلَةٌ حتى يَقْصِمها اللَّهُ إِذَا شَاءَ»[٢].

وأمَّا الفَصْمُ: بِالْفَاءِ: فكَسْرٌ من غير إبانه، انْفَصَمَ الشَّيْء انفصاماً إذا تصدَّع ولَم ينْكَسِر[٣]، ومِنْهُ حَدِيث البخاري في صفة الوحي: «فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا»[٤]، وهو أهونها؛ لأنَّه لا تتبيَّن معه أجزاء الشيء المكسور أو المقطوع، قال الله في مُحْكَمِ التَّنزيل: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٥]

وأما القَصْف: فالملمح المُميِّز له شِدَّة الصوت المُصاحِب للكسر، وقد استُعمِل في سياق التخويف، فتظاهرت شدة الكسر مع شدة الصوت لهذا الغرض[٦]،

---

(١) العين للخليل بن أحمد ٧٠/٥، المحقق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض ١١٥/٧ برقم ٥٦٤٤.

(٣) الفروق اللُّغوية لأبي هلال العسكري ص ١٥٠، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، ط: دار العلم والثقافة، القاهرة، مصر.

(٤) أخرجه البخاري في كيف كان بدء الوحي إلى رَسُول اللَّهِ – ﷺ – ؟ ٦/١ برقم ٢.

(٥) البقرة: (٢٥٦).

(٦) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، لبيان المَلامِح الفَارِقة بين الألفاظ مُتَقارِبة المعنى، والصِّيَغ والأساليب المُتشابِهة للدكتور/ محمد محمد داود ص ٣٥٩، الناشر: دار غريب للطباعة والنَّشر والتوزيع، القاهرة، سنة النشر: ٢٠٠٨م.

قال تَعَالَى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً﴾[1]

من خلال ما سبق تبيَّن أنَّ الفريدة تدلُّ معانيها اللُّغوية على مدى قوة الغضب الإلهي وشدة السخط، فهو ليس إهلاكاً عادياً، بل فيه أخذ وسرعة وكسر ودقٌّ وتهشيم بإبانة الأجزاء المكسورة وإزالةِ تأليفها حتى لَا يُرْجَى بَعْدَهُ الْتِئَامٌ ولا جَبْر ولَا انْتِفَاع لانفصال أجزائها عن بعضها البعض، وهذه الصور على مرأى ومشهد الجميع، وهذا يُضخِّم عملية القَصْم والتدمير[2]، وكأنَّ الحق – ﷻ – يضع أمام أعينهم القُرَى المكذِّبة الظالمة، ليأخذوا منها عِبْرة وعِظَة، فليس بِدَعاً أنْ نَقْصِم ظهور المكذِّبين، بل لها سوابق كثيرة في التاريخ، فأحذروا إنْ لويتُم أعناقكم أَنْ يُنزِل بكم ما نزل بهم[3].

– حروف الفريدة أوفق وأدق في أداء المعنـــى المراد، فهي تحكيه من نبرات حروفها، وإيقاع أصواتها، فالقَصْمُ: أشد حركات القطع، وقطع الشيء المستدير[4]، فصوت الصاد المهموس[5] لمن يتأمل يوحي بالهمس الذي

(١) الإسراء: (٦٩).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٥٨/٦، ط: دار إحياء التراث العربي، والتحرير والتنوير ٢٥/١٧.

(٣) تفسير الشعراوي، الخواطر ٩٤٩١/١٥، ٩٤٩٢، الناشر: مطابع أخبار اليوم.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي القاهري ص ٢٧٢، ط: عالم الكتب، القاهرة، ط: الأولى ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

(٥) انظر: صفات هذه الحروف الثلاثة «قَصَمَ» في: الكنز في القراءات العشر لأبي محمد، عبد الله بن المبارك المقرئ ١٦٨/١، المحقق: د/ خالد المشهداني، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط: الأولى ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

يُخيم على المكان بعد وقوع العذاب على المُكذبين، والإطباق على المُعذبين بحيث لا يشذ عنه أي شخص، وصوت الصفير الذي ينشأ عما يُحدثه الهلاك، والتي «يلحظ لدى استعراضها أنها تؤدي مهمة الإعلان الصريح عن المراد في تأكيد الحقيقة، وهي بذلك تُعبِّر عن الشدة حِيناً، وعن العناية بالأمر تارة أُخرى ممَّا يُشكِّل نغماً صارماً في الصوت، وأزيزاً مشدداً لدى السمع، يخلصان إلى دلالة اللَّفظ في إرادته الاستعمالية، ومؤداه عند إطلاقه في مظان المعنى»(١)، والقاف التي فيها معنى الشِّدة والعُنف والتحطيم والدَّق والقلقة والاستعلاء الذي يقع على القُرى ليشمل ما فيها ومن فيها، فالكُل قد دمَّره الله – ﷻ – تدميراً، ثُم تسمع الجهر في الميم والانفتاح الذي يُوحي بالظُهور وعدم الخفاء، فهذا القَصْم لم يكن خافياً على أحد، كما قال الله تَعَالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُصْبِحِينَ* وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(٢)، فأدَّتْ الفريدة بحروفها ونَغَم أصواتها المعنى أفضل أداء وأَوْفَاه كما يحسه كل ذي ذوق سليم وطبع مستقيم إذا أدار حروف الفريدة على لسانه، وأنعم فيها نظره، وقلَّب فيها فكره وعقله.

– جاء العِقاب المُتمثِّل في الفريدة مُتناسقاً مع الْجُرْم الذي ارتكباه ألا وهو الظُّلم، فقد أقامت كثير من الأُمم حضارات راقية في المجال المادي، ولكنها أقامتها على أُسُس ظالمة فَقَضَتْ على غيرها بالضَّياع والتَّشريد والدَّمار، وطمست فيها الحواجز والقِيم والأخلاق والشرائع، وأهلكتهم إهلاكاً

(١) الصَّوت اللُّغوي في القُرآن، د/ مُحَمَّد حُسين علي الصَّغِير ص ١٧٩، ط: دار المُؤرِّخ العربي، بيروت، موسُوعة الدِّراسات القُرآنيَّة: «٢»، الأُولى ١٤٢٠هـ.
(٢) الصافات: (١٣٧، ١٣٨).

ظاهراً عياناً للجميع؛ لتكون هي عالية خفَّاقة لها الرِّيادة عليها، فشعرت أنَّها آمنة مُطْمئنة من مَكْر الله – ﷻ –، لكن لا تعلم أنَّ هذا بداية نهايتها فأتى الله بنيانهم من القواعد ودمَّر ما كانوا يصنعون، فصفحات التاريخ وسُنن الله الكونية تُعلِّمنا أنَّ الجزاء مِنْ جِنْس العمل: ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(١)، فكان اختيار هذه الفريدة دون غيرها له وَقْع على الأسماع وتأثير على الأفئدة؛ لبيان مدى بشاعة وفظاعة ارتكاب جريمة الظُّلم؛ إذ له خطر على مستقبل الشعوب ومصير الأُمم قديماً وحديثاً، وتلك عادة القرآن في التَّناسق بين عباراته وبين الموضوع والحدث المُراد توصيفه، فيخرج بدقَّة عالية كأنَّه واقِع مُشاهد أمام السَّامع لا يُفَارِقه إلَّا وقد حرَّك مشاعره تِجاه القضية المُثارة.

– تدل الفريدة على أنَّ ما أصاب تلك القُرى من شكل هذا العذاب كان جديداً في بابه بالنسبة للأُمَمِ التي وقع بها صُنُوف من العذاب المُختلفة فكأنَّه لا نظير ولا شبيه لـــه، فلمْ يَحْكُ القرآن الكريم عن عذاب «القَصْم» بنصِّه وفصِّه إلَّا في هذا الموضع مِنْ كِتاب الله – ﷻ –، مع العِلم أنَّ كـــل أُمَّة قد تفرَّدت بنصيبها من العذاب الذي لم يشركها فيه غيرها البتة يُعلم ذلك من خلال استقراء آيات القرآن الكريم، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فُصِّلتْ: (٤٦).

المطلب الثاني

الفريدة الثانية: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾

قبل الغوص في بحار هذه الفريدة حري بي إظهار أقوال المفسرين فيها، وقد ذكروا فِي مَعنَى «فَيَدْمَغُهُ» فِي قوله تَعَالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾[(١)] سبعة أقوالٍ:

الأَوَّلُ: يبطله ويضمحل به [(٢)].

الثَّانِي: يزيله[(٣)].

الثَّالِثُ: فَيهْلِكُه، وقائل هذا القول مُحَمَّد بْن السَّائِب الْكَلْبِيُّ[(٤)].

الرَّابِعُ: يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المَحْكية وأمثالهم[(٥)].

الْخَامِسُ: يَقْهَرُه[(٦)].

---

(١) الأنبياء: (١٨).

(٢) بحر العلوم للسمرقندي ٣٦٤/٢، ت: علي محمد معوض وآخرون، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٩٩٣م.

(٣) تفسير القرآن للسمعاني ٣٧٢/٢، ت: ياسر بن إبراهيم وآخرون، ط: دار الوطن، الرياض، الأولى ١٩٩٧م.

(٤) معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٢٨٥/٣، ت: عبد الرزاق المهدي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى ١٤٢٠هـ، والتَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٤٠/١٥، ت: أصل تحقيقه في «١٥» رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ط: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى ١٤٣٠هـ.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٦٠/٦.

(٦) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ٤٧٤/٣، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط: الأولى ١٤١٤هـ.

السادس: فيذهبه ذهاب الصغار والإذلال[١].

السابع: يكسره[٢].

وجميع هذه المعاني تحتملها الآية فلا داعٍ لتَخصِيص بعضها دُونَ البعض، لكن تعبير القرآن الكريم بهذه اللَّفظة يُثير في الذِّهن أنَّ له دلالات عِدَّة منها:

- هذه الفريدة أبلغ وأوجز؛ لأنها تضم في ثناياها المعاني السابقة كلها، ولا منافاة بينها جميعها، فآيات الله تَعَالَى وما تحمله من حق وهدايات، تنزل على ما يختلقه أصحاب الباطل من ضلالات وأوهام فتزيلها وتكسر قوتها الظاهرية، وتُقهر وتُذل مُتَّبعيها وتمحقهم على رؤوس البرية، كما قال سيدنا عَلِي - ﷺ - فِي صِفَةِ الصَّلَاة عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ -: «وَالدَّامِغِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ»[٣] أَيْ: المُهْلِك لما نجم وارتفع من الأباطيل، وأصل الدَّمْغ من الدِّمَاغ كَأَنَّهُ الَّذِي يضْرب وسط الرَّأْس فيدمغ أَي: يُصِيب الدِّمَاغ[٤].

- الدَّمغ: إنما يكون عن وقوع الأشياء الثِّقال، وعن طريق الغلبة والاستعلاء، فكأنَّ الحقَّ أصاب دماغ الباطل فأهلكه، وتتسم كلمة «يَدْمَغُهُ»

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٨٧/٣.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٨٥، ت: أحمد صقر، ط: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٦٣/١٠ برقم ١٧٣٠٦، وقال: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَسَلَامَةُ الْكِنْدِيُّ، رِوَايَتُهُ عَنْ عَلِيٍّ مُرْسَلَةٌ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ، ت: حسام الدين القدسي، ط: مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ.

(٤) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٣٣/٢، ط: المكتبة العلمية، بيروت ١٩٧٩م، غريب الحديث لابن قتيبة ١٤٦/٢.

بالاختزان نتيجة اشتقاقها من عبارة «ضربة على دماغه»[1]، وتتوافق تلك القوة القاهرة للحق المتمثلة في القذف والدمغ والإزهاق مع أحداث التاريخ وأخبار القرون الخالية التي عرضتها الآيات السابقة لتصوير مصارع القوم الظالمين، والتي تمثلت في القَصْم، والرَّكض، والحَصِيد الخامد.

– الدِّماغ أشرف أعضاء الإنسان ففيه المخ، وهو ميزان المرء، فإنْ كان المخ سليماً أمكن إصلاح أيِّ عطل آخر، أمَّا إنْ تعطل المخ فلا أملَ في النجاة بعده، لذلك جعل الحق – ﷻ – عَظْمة الدماغ أقوى عظام الجسم لتحفظ هذا العضو الهام، والأطباء لا يحكمون على شخص بالموت– مثلاً – إذا توقف القلب؛ لأنَّ القلب يجري له تدليك معين فيعود إلى عمله كذلك التنفس، أمَّا إنْ توقف المخ فقد مات صاحبه، فهو الخلية الأولى والتي تحتفظ بآخر مظاهر الحياة في الجسم؛ لذلك يقولون: موت إكلينيكي.

وللمخ يصل خُلاصة الغذاء، وهو المخدوم الأعلى بين الأعضاء، إذاً: فقوله تعالى: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي: يصيبه في أهم الأعضاء وسيدها والمتحكم فيها، لا عضو آخر يمكن أنْ يُجبر؛ لذلك يقول بعدها ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾: يعني خارج بعنف[2].

وهذا المُخ عبارة عن مجموعة من «تلاتيف» خلوية رخوة داخل تجويف الجمجمة، مُحاط بعظامٍ قوية، لكنها قابلة للشج إذا ضُرب عليها بقوةٍ، وهذا يُشبه أصحاب الباطل الذين يبدون في ظاهرهم أقوياء متحصنين بالجاه

(١) جماليات المفردة القرآنية، تأليف: أحمد ياسوف ص ١٤٥، ط: دار المكتبى، دمشق، الثانية ١٩٩٩م.

(٢) تفسير الشعراوي، الخواطر ٩٥٠١/١٥، ٩٥٠٢.

ومتدرعين بالحول والطول، بيد أنَّ قلوبهم من الداخل خاوية[١] كما وصفها الله تعَالَى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾[٢]

– إنها قلوب لا تصمد أمام قذيفة الحق الدامغة الزاهقة، ولهذا تفرَّد «فَيَدْمَغُهُ» في موضعه بهذا الإيحاء، وتفرَّد في القرآن كله؛ لأنَّ السِّياق يقتضيه حيث جاء ليُقرِّر حقيقة إلهية أزلية تغيب عن أذهان كثير من الناس وهي أنَّ الحق هو الأصل الثابت في الحياة، ومهما علا الباطل وارتفع أو ساد اللَّهو فترة من فترات الضَّعف، فإنَّ الغلبة في النهاية تكون للحق؛ ولأنَّ هذا الموقف نفسه لم يتكرر في كتاب الله بهذه القوة وبهذا الحسم، فهم عطَّلوا أشرف الأعضاء عن القيام بوظيفتها التي تقودهم إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، لذا استعار الله لبيان صولة الحق على الباطل لفظي: «القَذْف، الدَّمْغ» دون غيرهما، تصويراً لإبطال الباطل وإهداره ومحقه في صورة هشة هزيلة ضعيفة سرعان ما تتهاوى أمام ضربات الحق في لحظة المواجهة، فجعله كأنه جرْمٌ صُلْبٌ كالصخرة مثلاً قذف به على جرْمٍ رَخْوٍ أجوف فَدَمَغَهُ، فكأنَّ الباطل حيوان له دماغ، فإذا تشتت دماغه مات واضمحل، وكذا الحق باقٍ إلى يوم الخلود، وما يرمونه من باطل فهو ميت فانٍ كأنَّه لم يكن، ولم يبقَ إلَّا ذكراً في صحائف، وقصصاً تتلى وتُقَصُّ في ليالي السَّمر [٣].

---

(١) بلاغِة الفَرائِد الفَذَّة في القُرآن الكريم المُضَارع نَمُوذجاً، تأليف: الدكتور/ كمال عبد العزيز إبراهيم ص ٤٠، ط: الدَّار الثَّقافِيَّة للنشر، القاهرة، ط: الأُولى ١٤٣١هـ.

(٢) إبراهيم: (٤٣).

(٣) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ١٠٧/٣ بتصرُّفٍ.

– مجيء هذه الفريدة دون غيرها من الألفاظ كلفظ «يُذهبه» مثلاً، لا يُعطي تلك الصورة الحسية الحية المتحركة للمعركة التي تَنْشُب بين الحق والباطل فيُهزم الباطل أمام الحق الناصع، فالفريدة تعطيك دلالة على أنَّ الحق عندما يقع على الباطل يقتله قتلاً ذريعاً في الحال فلا يبقى معه نفس ولا همسة ولا حركة؛ لأنَّه أصاب أُم الرَّاس وهي الدِّماغ، بخلاف لفظ «يُهذب» الذي قد يُعطيك إشارة إلى بقاء رمق للباطل يستطيع مع مرور الوقت القيام مرَّة أُخرى ليُصَارِع الحق.

فالفريدة قد رسمت في خيال المُستمع صورة فنية مُجسَّمة للصراع الناشب بين الخير والشَّر، وكأنَّه يرى هذه الصورة المُتخيَّلة بعينه، كما لو كان يُشاهد فيلماً معروضاً على الشاشة، فلو فتَّشْتَ في اللُّغة جميعها فلن تجد لفظة أقْدَر وأَوْفَق على وصف هذا المعنى إلَّا تلك الفريدة، «فتتلمَّس في تناسق حروفها وحركات هذه الحروف مع دلالتها إيماء إلى المعنى المقصود، فيرسم جرسها ما يُوحي للنَّفس بإيقاعٍ عميق نحس فيه بجو الفكرة إحساساً قوياً»(١).

– الفريدة تُشير إلى أنَّ المُجادل أو المُخاصم عليه أنْ يتوجَّه بحجَّته الدَّامغة وأدلَّته السَّاطعة على أصل الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾، ولا ينشغل بالقضايا الجانبية والأطراف البعيدة عن المسألة الأصلية التي لو بيَّن بطلانها بقي غيرها ومنبعها الذي يولد أطرافاً أُخرى.

---

(١) من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النَّص القرآني، تأليف: أ.د/ طالب محمد إسماعيل الزوبعي ص ٣٧١، ط: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الأولى ١٩٩٦م.

– التعبير بهذه الفريدة دون ألفاظ: «الإزالة، الإعدام، المحو» وغيرها، «إشارة إلى أن إزالة الباطل وإهلاكه بالحق إنَّما يكون بطريق ضرب الحق على محور الباطل ومُخِّه، وأصل وجوده ورأس ظهوره، فالحق يذهب بمحور الباطل ويمحو بأصله ومبدأ ظهوره وتظاهره»[1]؛ ولهذا عبَّر الله – ﷻ – عن انتصار الحق على الباطل باستخدام الفعل المضارع ﴿نَقْذِفُ﴾، وكذلك استخدام نفس الزَّمن مع الفعل ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ ممَّا زاد المعنى قُوَّة وتأكيداً لذلك الانتصار.

فهذه المعاني السابقة لا تتأتَّى في غير هذه الفريدة بالدَّرجة والقوة نفسها، بل قد لا تتأتَّى فيها البتة، ومن يُراجع سِياقات الألفاظ المُشابهة في القرآن الكريم يجدها لا تحمل شيئاً من المعاني التي أشرنا إليها، فاتَّضح أنَّ الفريدة أكثر ثراء، وأوفق في الدلالة على المعنى المراد.

(١) التَّحقيق في كلمات القُرآن الكريم "يبحث عن الأصل الواحد في كُلِّ كلمةٍ، وتطبيقية على مُختَلفِ مَوارِد الإستعمال في كلماته تَعَالَى، للمُحقِّق المُفسِّر العَلَّامة: حسن المُصطَفَوي ٢٦٨/٣، ط: مُؤسَّسة الطِّباعة والنَّشر، وزارة الثَّقافة والإرشاد الإسلامي، مَركز نَشر آثار العَلَّامة المُصطَفوي، طَهَران، إيران، ط: الأولى ١٤١٦هـ= ١٣٨٥م.

المطلب الثالث

الفريدة الثالثة والرابعة: ﴿رَتْقًا﴾ ، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾

اخْتَلَفَ أَهْلُ التفسير فِي مَعْنَى وَصْفِ اللَّهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِـ «الرَّتْق»، وَكَيْفَ كَانَ الرَّتْق، وَبِأَيِّ مَعْنَى «فُتِقَ» فِي قوله تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما﴾[1] على عدَّة أقوال:

الأَوَّلُ: أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض كَانَتَا مُلْتَصِقَتَيْنِ فَرَفَعَ السَّمَاءَ إِلَى مكَانِهَا، وَأَقَرَّ الْأَرْضَ فِي مكَانِهَا، وَفَصَلَ بَيْنَهُمَا بِالْهَوَاءِ الَّذِي بَيْنَهُمَا كَمَا تَرَى، وهذا قول ابْن عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما– (ت ٦٨هـ)، وقَتَادَة (ت نحو ١١٧هـ).

الثَّانِي: أَنَّ السَّمَاوَات كَانَتْ مُرْتَتِقَة طَبَقَة فَفَتَقَهَا اللَّهُ فَجَعَلَهَا سَبْع سَمَاوَاتٍ، وَكَذَلِكَ الْأَرْض كَانَتْ كَذَلِكَ مُرْتَتِقَة فَفَتَقَهَا، فَجَعَلَهَا سَبْع أَرَضِينَ، وَهُوَ قَوْل أَبِي صَالِحٍ، وَمُجَاهِدٍ.

وعلى هذا القول فـ «الرؤية» المُوقَف عليها: رؤية القلب[2].

الثَّالِثُ: أَنَّ السَّمَاوَات كَانَتْ رَتْقًا بِالِاسْتِوَاءِ وَالصَّلَابَةِ لَا تُمْطِرُ، وَالْأَرْض كَذَلِكَ رَتْقًا لَا تُنْبِتُ، فَفَتَقَ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ، وَالْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ، وهذا تفسير ابْن عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما–[3]، وعِكْرِمَة[4]، وقول أكثر المفسرين كما نصَّ على ذلك الْوَاحِدِي

---

(١) الأنبياء: (٣٠).

(٢) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٨٠/٤.

(٣) القول الثالث أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤١٤/٢ برقم ٣٤٤٣، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، وقال الذهبي: طَلْحَة بْن عَمْرٍو واهٍ، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٩٩٠م.

(٤) انظر هذه الأقوال: جامع البيان في تأويل القرآن ٤٣١/١٨، ٤٣٢.

(ت ٤٦٨هـ)[١]، الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)[٢]، أبو السعود (ت ٩٨٢هـ)[٣].

وعلى هذا القول فـ «الرؤية» المُوقَف عليها: رؤية الْبَصَر.

الرَّابِعُ: قَوْلُ أَبِي مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِي: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْفَتْقِ الْإِيجَاد وَالْإِظْهَار كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾[٤]، وَكَقَوْلِهِ - ﷻ -: ﴿قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾[٥]، فَأَخْبَرَ عَنِ الْإِيجَادِ بِلَفْظِ الْفَتْقِ وَعَنِ الْحَالِ قَبْلَ الْإِيجَادِ بِلَفْظِ الرَّتْقِ، أَيْ: كَانَتَا عَدَمًا فَأَوْجَدْنَاهُمَا.

الْخَامِسُ: أَنَّ اللَّيْلَ سَابِقٌ عَلَى النَّهَارِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ﴾[٦]، وكانت السموات والأرض مُظْلِمَة أَوَّلًا فَفَتَقَهُمَا اللَّه تَعَالَى بِإِظْهَارِ النَّهَارِ الْمُبْصِرِ [٧].

قال الفَخْرُ الرَّازِيُّ تعقيباً على هذين القولين: (فَإِنْ قِيلَ: فَأَيُّ الْأَقَاوِيلِ أَلْيَقُ بِالظَّاهِرِ؟ قُلْنَا: الظَّاهِرُ يَقْتَضِي أَنَّ السَّمَاءَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَالْأَرْضَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ كَانَتَا رَتْقًا، وَلَا يَجُوزُ كَوْنُهُمَا كَذَلِكَ إِلَّا وَهُمَا مَوْجُودَانِ، وَالرَّتْقُ ضِدُّ الْفَتْقِ فَإِذَا كَانَ الْفَتْقُ هُوَ الْمُفَارَقَة، فَالرَّتْقُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ

---

(١) التَّفْسِيرُ البَسِيْط ٥٩/١٥.

(٢) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير للفخر الرازي ١٣٧/٢٢، ط: دار إحياء التراث العربي، الثالثة ١٤٢٠هـ.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٦٥/٦.

(٤) الشورى: (١١).

(٥) الْأَنْبِيَاء: (٥٦).

(٦) يس: (٣٧).

(٧) مفاتيح الغيب ١٣٧/٢٢، ١٣٨.

الْمُلَازَمَة، وَبِهَذَا الطَّرِيق صَارَ الْوَجْه الرَّابِع وَالْخَامِس مَرْجُوحًا)[1].

أقول: بعد إيراد هذه الأقوال تبيَّن أنَّ القول الثالث هو الراجح؛ لعدة أسباب:

أولاً: أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ - على قول مَنْ قال: إنَّ «رَأَى» بَصَرِيَّة - إنكار وتوبيخ للذين ينكرون حقيقة خلق السموات والأرض أي: أَمَا آن لهم أنْ يؤمنوا حينما يتَّضح لهم هذا الحدث على يد العلماء قديماً وحديثاً[2]، فكأنَّهم عَايَنُوا وشاهدوا هذا، وَالَّذِي يَرَوْنَهُ بِأَبْصَارِهِمْ هُوَ أَنَّ السَّمَاءَ تَكُونُ لَا يَنْزِل مِنْهَا مَطَرٌ، وَالْأَرْض مَيِّتَة هَامِدَة لَا نَبَات فِيهَا، فَيُشَاهِدُونَ بِأَبْصَارِهِمْ إِنْزَال اللَّهِ الْمَطَر وَإِنْبَاته بِهِ أَنْوَاع النَّبَات، فكان هذا أدلَّ على تمام القدرة، وكان مساقاً لهم إلى التوحيد والإيمان بخالق هذه الموجودات[3]، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: (فإنْ قلتَ: متى رأوهما ﴿رَتْقًا﴾ حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلتُ: فيه وجهان، أحدهما: أنَّه واردٌ في القرآن الذي

---

(١) التفسير الكبير ٢٢/١٣٨.

(٢) ورد أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كَانُوا عندهم أَثارَة من علم ذَلِكَ، حيث جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ: أَنَّ اللَّه تَعَالَى خَلَقَ جَوْهَرَة، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْهَيْبَة فَصَارَتْ ماء، ثم خلق السموات والأرض منها وفتق بينهما، وكَانَ بَيْنَ عَبَدَة الْأَوْثَان وَبَيْنَ الْيَهُود نَوْع صَدَاقَةٍ بِسَبَبِ الِاشْتِرَاك فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - فَاحْتَجَّ اللَّه تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُمْ يَقْبَلُونَ قَوْلَ الْيَهُود فِي ذَلِكَ. التفسير الكبير ٢٢/١٣٧، وفي العصر الحديث يأتي أهل الاختصاص يُحقِّقون تلك الرؤية بالعلم عن طريق مشاهدة ظواهر الكون وعن طريق الاستنتاج، فيتحقَّق بذلك صدق القرآن الكريم فيما أخبر به من حقائق ونظريات علمية.

(٣) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٤/١٤١ بتصرُّفٍ، ط: دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.

هو معجزة في نفسه، فقام مقام المرئي المشاهد، والثاني: أنَّ تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل، فلا بُدَّ للتباين دون التلاصق من مخصِّص وهو القديم سبحانه)[1].

ثانياً: المُلاحظ أنَّ الله تَبارك وتَعالَى أتْبع ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، وَالظَّاهِر اتِّصَال هَذَا الْكَلَام بِمَا قَبله، وَأَنَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَمْ يُعَقِّبْ ذَلِكَ بِوَصْفِ الْمَاء بِهَذِهِ الصِّفَةِ إِلَّا وَالَّذِي تَقَدَّمَهُ مِنْ ذِكْرِ أَسْبَابِهِ[2]، قال ابْنُ عَطِيَّةَ: (وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ يَجْمَعُ الْعِبْرَةَ وَتَعْدِيدَ النِّعْمَةِ وَالْحُجَّةَ لِلْمَحْسُوسِ بَيِّنٌ، وَيُنَاسِبُ قَوْلَهُ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أَيْ: مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أَوْجَدَهُ الْفَتْق فيظهر معنى الآية ويتوجه الاعتبار)[3].

ثالثاً: أنَّ هذا التفسير جاء مُوضَّحاً في آيات أُخر من القرآن الكريم، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾[4]، فالمراد بـ «الرَّجْعَ»: المَطَر، و«الصَّدْعَ» بمعنى: انشقاق الأرض عن النَّبَات، وهذا المعنى الوارد في «الرَّجْعَ»، «الصَّدْعَ» قَوْل جَمِيع الْمُفَسِّرِينَ كما نَصَّ على ذلك صراحة غير واحدٍ منهم[5]، بل هو قول الْجُمْهُور كما نَصَّ على ذلك

(١) الكشاف ١١٣/٣.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ٤٣٣/١٨.
(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٨٠/٤.
(٤) الطارق: (١١: ١٢).
(٥) انظر: تفسير القرآن للسمعانيِّ ٢٠٤/٦، والوسيط للْوَاحِدِيِّ ٤٦٧/٤، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤٣٠/٤، ت: عبد الرزاق المهدي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الأولى ١٤٢٢هـ.

ابن جُزَي (ت ٧٤١ هـ)[١]، وأبو حيَّان الْأَنْدَلُسِي (ت ٧٤٥هـ) [٢].

وقَوْله تعَالَى أيضاً: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾[٣]، و«يُؤَيِّدُ ذَلِكَ أيضاً كَثْرَة وُرُودِ الِاسْتِدْلَال بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ، وَإِنْبَاتِ النَّبَات فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعِظَمِ مِنَّتِهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ»[٤].

رابعاً: أنَّ هذا المعنى لا تعارض بينه وبين المعاني الأُخرى سِوى القول الرابع والخامس، فَفَتْق السماء بالمطر، والأرض بالنبات لا يَمْنع أنَّهما كانتا مُلتصقتين، ثُمَّ انفصلتا وصارتا كل واحدة منهما سبعاً، وفَصَلَ بينهما بالهواء، فأمطرت السَّماء، وأنبتت الأرض.

«وإذا أجريت أقوال المفسرين على معنى «الرَّتْق والفَتْق» وجدتَ أقوالهم لا تخرج عنه، وتصدر منه، فما من قول إلا وفيه معنى «الرَّتق والفَتْق» سوى قول ابن عباس الأخير الذي هو تفسير بلازم لفظ «الرَّتق والفَتْق»، واستدلال على خلق الظلمة قبل النور؛ فكأنَّه ظهر له أنَّ الالتصاق قرين الظلمة، والفتق قرين النور، وهو النهار، وعلى هذا لا يكون تفسيره هذا تفسيراً للمفردة بما يدلُّ عليها من لغة العرب، بل هو تفسير لها

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٤٧٢/٢، ت: د/ عبد الله الخالدي، ط: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الأولى ١٤١٦هـ.

(٢) انظر: البحر المحيط في التفسير ٤٥٣/١٠، ت: صدقي محمد جميل، ط: دار الفكر، بيروت ١٤٢٠هـ.

(٣) عبس: (٢٤: ٢٦).

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٤٢/٤.

بلازمها في هذا السياق.

ومع رجحان هذا المعنى على ما سواه يبقى لغيره احتمال الصحة، فالأقوال غير متناقضة – كما ترى – بحيث لو قيل بأحدها سقط الآخر، وما دام الأمر كذلك، فإنَّ هذه الأقوال تكون في مرتبة دون هذا القول»[1].

- **والسؤال**: لِمَ عبَّر بتلك الفريدة دون غيرها ممَّا يُقاربها في المعنى كلفظ: «متصلتين»، «أزالهما، فصلهما» وبعضها مذكور في القرآن الكريم ؟

– الرَّتق: ضم هذه لتلك لتبدو واحدة سواء أكان طبيعياً أم صناعياً، ويستعمل اللَّفظان في مِهنة الخياطة، ف«الفَتْق»: الشَّق والانْشِطَار، ويكون بَين الشَّيْئَيْنِ اللَّذين كَانَا ملتئمين أَحدهمَا مُتَّصِل بِالْآخرِ فإذا فُرِّق بَينهمَا فقد فتقا، وَإِن كَانَ الشَّيْء وَاحِداً فَفرق بعضه من بعض قيل: قطع وَفصل وشق ولَم يقل فتق، فالرَّتْق: ضم قطع الثوب بعضه لبعض وفْق هندسة معينة يتم فيها تشكيل الثوب، وكذلك الفتق عودة القطع كما كانت قبل الرَّتْق، واستخدام كلمة «الفَصْل» قد يدخل قطعًا من هذه في تلك؛ لأنَّه سيكون مثل قَطْع السيف للأشياء على استقامة واحدة، وهذا غير المُراد والمُشاهد في الأرض، فكانت دلالة لفظ «الفَتْق» أقوى من دلالة لفظ «الفَصْل»[2].

---

(١) الإعجاز العلمي إلى أين؟ مقالات تقويمية للإعجاز العلمي، تأليف: د/ مساعد ابن سليمان الطيار ص١٢٢: ١٢٤، ط: دار ابن الجوزي، ط: الثانية ١٤٣٣هـ.

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٤١، ت: صفوان عدنان الداودي، ط: دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الأولى ١٤١٢هـ، والفروق اللغوية للعسكري ص ١٥٢ بتصرُّف.

– اختيار الكلمتين «الرَّتْق، الفَتْق» يدل على أنَّ السموات والأرض، وإنْ كانتا في حالة الرَّتق، إلَّا أنَّهما لم تكونا منصهرتين بعضهما ببعض، وإنَّما خلقهما الله معًا على أنْ تُفْصَلا وَفْق إرادته فيما بعدُ، ولكلٍّ منهما ميزتها وخاصيتها، وإلَّا لكان التَّعبير عنهما شيئًا واحدًا، فالمُناسِب اللَّطيف بهذا المقام هو التعبير بمادة «الرَّتْق» دون السَّد والضَّم والعَقْد، و«الفَتْق» دون الالتئام والالتحام وغيرها كما لا يخفى.

– هاتان الفريدتان واضحتا الدلالة علي «أنَّ الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية، بدأ الله تَعَالَي خلقه من جرم ابتدائي واحد «مرحلة الرَّتْق»، وهو القادر علي كل شيء، ثم أمر الله تَعَالَي بفتق هذا الجرم الابتدائي فانفتق «مرحلة الفَتْق»، ثُمَّ تحول هذا الجرم الأولي للكون المتناهي في ضآلة الحجم وضخامة الكثافة وشدة الحرارة إلي سحابة من الدخان «مرحلة الدُّخان الكوني»، وخلق الله تعالي من هذا الدُّخان كلا من الأرض والسماء أي جميع أجرام السماء وما ينتشر بينها من مختلف صور المادة والطاقة ممَّا نعلم وما لا نعلم، وتعرف هذه المرحلة باسم «مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء» وهو ما يُعرف بـــ «الانفجار الكوني العظيم»، وتلك النظرية هي الأكثر قبولاً عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية في تفسير نشأة الكون.

وأقرب أقوال المفسرين لهذه النظرية القول القائل: إنَّ السموات والأرض كانتا ملتزقتين ففتقهما إلى سماء وأرض.

– استعمال لفظ «الفَتْق» دون لفظ «الانْفِجار» دليل على إعجاز القرآن في دقة التعبير واصطفاء ألفاظه اصطفاء لا غاية بعدها، فالانْفِجار بطبيعته يؤدي إلي تناثر المادة وبعثرتها ولا يخلف وراءه إلَّا الدَّمار، أمَّا هذا

«الفَتْق» الكوني بعد الرتق فقد أدي إلي إبداع نظام كوني له تصميم دقيق محكم الأبعاد والعلاقات والتفاعلات، منضبط الكُتل والأحجام والمسافات، منتظم الحركة والجري والتداخلات، مبني علي الوتيرة نفسها من أدق دقائقه إلي أكبر وحداته علي الرغم من تعاظم أبعاده، وكثرة أجرامه، وتعقيد علاقاته، وانفجار هذه نتائجه لا يمكن أن يكون قد تَمَّ بغير تدبير حكيم وتقدير مسبق عظيم لا يقدر عليه إلا رب العالمين»[(١)]، قال تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[(٢)]، وقال تَعَالَى: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[(٣)]

– تُشير الفريدتان إلى أنَّ الكون كان لا مَعْلَم فيه، فلا سماء ولا أرض ولا حياة عليه، ثُمَّ فتق الله السموات والأرض، فأوجد عوالم السموات من كواكب ونجوم، وأوجد الأرض وما عليها من مخلوقات من إنسان وحيوان ونبات وجماد ... الخ.

لقد كانت السموات والأرض كُتْلَة أشبه بالنُّطفة التي يتخلَّق منها الجنين، فمن هذه النُّطفة كان هذا الإنسان، بل هذا الكون الصغير، وكان هذا الخَلق السَّوىّ الذي هو عليه[(٤)].

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي السماء في القرآن الكريم، تأليف: أ.د/ زغلول النجار ص ٩٥، ١٠٣: ١٠٧، ط: دار المعرفة، بيروت، الرابعة ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

(٢) الأنبياء: (٣٣).

(٣) يس: (٤٠).

(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٨٦٧/٩، ٨٦٨، ط: دار الفكر العربي، القاهرة.

– هاتان الفريدتان أقدر من غيرهما على حمل هذه المعاني كلها دُفعة واحدة، وأي لفظ وضعته مكانهما فإنَّ سِياق الكلام يرفضه ولا يؤيده، فَبَانَ أنَّ الفريدتين وضعتا أوجز، وأكثر ثراء، وأغزر دلالة من غيرهما، ومِنْ ثَمَّ حلَّت في محلهما الأنسب لهما، وتواءمتا مع سياق الكلام أشد وئام؛ فقد أعطتا صورة كُلية جامعة لهذا الحدث الكوني العظيم، وتركتا التفاصيل لجهود العلماء والمفكرين الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض، والذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة في صفحة السماء لتؤكد في القرن الحادي والعشرين صدق ما قد أنزله الله تَعَالَي في آخر كُتبه، وعلي خاتم أنبيائه ورسله سيدنا مُحَمَّدٍ – ﷺ –.

– تدُلُّ الفريدتان على أنَّ المفردات القرآنية التي وردت في وصف الظواهر الكونية دقيقة جداً، فهي تُعبِّر عن الحقائق المطلقة لأشياء لم ير النَّاس خلقها، بالإضافة إلى أنَّ مفردات القرآن في هذا الشأن تُصحِّح للعلماء فيما اختلفوا فيه، وتفتح أمامهم نافذة على علوم المستقبل في علوم تَأْرِيْخ الكون والفلَك، قال تَعَالَى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾(١).

– ناهيك عما في حروفها من جرس صوتي يحكي معناها لمن يُجريها على لسانه بدقةٍ وتأملٍ «رَتَقَ» فالتكرير في حرف الراء يدل على تعدد طبقات السموات والأرض بعد انفصالهما، فكل منهما سبعاً كما ذكر القرآن الكريم، والتاء التي تعكس حالة الهَمْس التي كانت سائدة السماء والأرض

(١) الكهف: (٥١).

نتيجة ضمهما معاً كعادة الأشياء إذا تجمَّعت والتصقت مع بعضها البعض، «فَتَقَ» فالانفتاح في الفاء يُوحي بالفُرجة التي حدثت نتيجة هذا الفَتْق كفتح الإنسان لشيء مُغلق، والتاء تصف حالة الشدة والقوة التي صاحبت هذا الانْفِجار الكبير، والقاق التي تحكي القلقة والاضطراب الذي حدث نتيجة هذا الانفصال وإزالة هذا الالتحام.

والطِباق بين «رَتَقَ»، «فَتَقَ» وهما متضادتان أكْسَبَ الكلام رونقاً وحُسْناً وبهاءً، و"الفاء" في قوله تَعَالَى: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ للترتيب والتعقيب؛ «لأنَّه لمْ يكنْ بين الرَّتق والفتق أمر كوني آخر، وكل شيء من فعل الله تَعَالَى يكون بقوله "كن فيكون"، ولا فاصل من الزَّمان بين قول الله – ﷻ – "كن" وما يكون»(١).

– عكست الفريدتان تفرُّد تلك الحالة في القرآن، إذ لمْ يحك في الذِّكر الحكيم صراحة عن حالة «الانفجار الكوني العظيم» إلَّا في هذا الموضع، فهي أَوْمَأتْ إلى هذه الحالة العجيبة الغريبة في تاريخ الإنسانية الطويلة على الكُرة الأرضية والتي لم تتكرر من قبل، ألَا ما أحكم هذا القرآن وأجله وأعظمه؛ إنه تنزيل من حكيم حميد.

– ائْتِلَاف هاتين اللَّفظتين دون غيرهما مع بقية ألفاظ الآية، فهما من أوضح ما يكون على مراعاة الذِّكر الحكيم للتناسب الشديد بين الألفاظ، وهو ما يُسمِّيه الزَّركشي «مُشَاكَلَةُ اللَّفْظِ لِلْمَعْنَى»(٢)، أو كما يُسميه

(١) انظر: زهرة التفاسير لمحمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة ٤٨٥٦/٩، الناشر: دار الفكر العربي.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣٧٨/٣.

السيوطي «ائْتِلَافُ اللَّفْظِ مَعَ اللَّفْظ» حيث يقول: «ائْتِلَافُ اللَّفْظِ مَعَ اللَّفْظِ وَائْتِلَافُهُ مَعَ الْمَعْنَى، الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ الْأَلْفَاظُ يُلَائِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا بِأَنْ يقرن الْغَرِيبُ بِمِثْلِهِ وَالْمُتَدَاوَلُ بِمِثْلِهِ رِعَايَةً لِحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْمُنَاسَبَةِ.

وَالثَّانِي: أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُ الْكَلَامِ مُلَائِمَةً لِلْمَعْنَى الْمُرَادِ فَإِنْ كَانَ فَخْمًا كَانَتْ أَلْفَاظُهُ فَخْمَةً أَوْ جَزْلًا فَجَزْلَةً أَوْ غَرِيبًا فَغَرِيبَةً أَوْ مُتَدَاوَلًا فَمُتَدَاوَلَةً أَوْ مُتَوَسِّطًا بَيْنَ الْغَرَابَةِ وَالِاسْتِعْمَالِ فَكَذَلِكَ»(١).

وهكذا جاءت كل لفظة مُتناغية مع ما جاورها تنادي كل كلمة على أختها، وتنسجم مع سياقها، وهذا دَأْبُ الذِّكر الحكيم كتاب العربية المُعْجِز الخالِد.

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣/٢٩٩.

المطلب الرابع

الفريدة الخامسة: ﴿يَكْلَؤُكُمْ﴾

ذكر المفسرون في بيان معنى هذه الفريدة «يَكْلَؤُكُمْ» فِي قوله تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ﴾[1] ثلاثة أقوال:

أولها: يَحْفَظُكُمْ بالليل والنهار من الرحمن، وهو قول قَتَادَة (ت نحو ١١٧هـ)[2].

ثانيها: مَنْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِ الرَّحْمَنِ، وهذا قول عَبْد اللَّهِ بْن عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما– (ت ٦٨هـ) [3].

ثالثها: يَحْرُسُكُمْ بِاللَّيْلِ فِي حَالِ نَوْمِكُمْ وَالنَّهَار فِي حَالِ تَصَرُّفِكُمْ فِي أُمُورِكُمْ، وهذا قول عَبْد اللَّهِ بْن عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما– [4].

- **لكن ما السِّر في ورودها وحيدة مع وجود ما يُماثلها أو يُقَاربها في القرآن الكريم؟**

أقول: لا شكَّ أنَّ في انتخابها خصائص فنية، وأسراراً تعبيرية جمَّة منها:

– مادة (كَلَأَ) الْكَافُ وَاللَّامُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَوِ الْهَمْزَةُ أَصْلٌ صَحِيحٌ: يَدُلُّ عَلَى مُرَاقَبَةٍ وَنَظَرٍ، وَأَصْلٌ آخَرُ يَدُلُّ عَلَى نَبَاتٍ، وَالثَّالِث عُضْوٌ مِنَ الْأَعْضَاءِ ثُمَّ يُسْتَعَارُ [5].

بهذه الدلالات اللُّغوية ينفرد الفعل في الآية بمعاني رحبة تشمل حفظ الله ورعايته وحراسته، وإيجاد مأوى يسكنون فيه يقيهم الحر والبرد،

---

(١) الأنبياء: (٤٢).

(٢) تفسير يحيى بن سلام ٣١٤/١.

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٢٣٨/٣، معالم التنزيل في تفسير القرآن ٢٨٩/٣.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦٣١/٥، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٥٣/٤.

(٥) معجم مقاييس اللُّغة ١٣١/٥.

ويمدهم بمقوِّمات الحياة من غذاء وكِساء لحفظ أعضائهم من الهلاك، فمَنْ سواه قادر على فعل ذلك ؟[١]، ومع ذلك هم عن الدلائل العقلية والنقلية لاهون معرضون لا يتأملون في شيء منها مع أنَّ هذه الأصنام لا تقدر على حفظهم ولا على الإنعام عليهم، فلو استخدمت أي لفظ آخر لما أشار إلى تلك المعاني، ولذا في آخِرِ الْكَلَامِ تَقْدِير مَحْذُوفٍ: كَأَنَّهُ قال: لَيْسَ لَهُمْ مَانِعٌ ولَا كالىء إلَّا الرَّحمن [٢].

- الفريدة تُشير بحروفها إلى أنَّ الإنسان - مهما ملك من جاه وقوة وسلطان- هو كائن عاجز ضعيف، محتاج إلى قُوة عُليا ترعاه، وتمدّه بأسباب الحياة والبقاء[٣]، ولهذا خُصَّ هاهنا اسْم «الرَّحْمَن» دون غيره من أسماء الله - ﷻ -؛ للتنبيه على أنَّه لا حفظ لهم إلَّا برحمته العامَّة، وتلقين للجواب حَتَّى يَقُولَ الْعَاقِلُ: أَنْتَ الْكَالِئُ يَا إِلَهُنَا لِكُلِّ الْخَلَائِقِ بِرَحْمَتِكَ، وإقامة للحجة عليهم؛ لأنَّهم لو أجابوا عن هذا السؤال لاعترفوا أنَّهم ليس لهم مانع ولا حافظ، وقيل إنَّه إيماء إلى شدته كغضب الحليم، وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته، ودلالة على شدة خبثهم ومحادَّتهم لله ورسوله-ﷺ- حتى إنَّ رحمة الله - مع سعتها - تكاد تطردهم من رحاب فضلها وجودها[٤].

---

(١) انظر: زهرة التفاسير ٤٨٦٩/٩.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٨٤/٤، البحر المحيط في التفسير ٤٣٣/٧.

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٩٠١/٩.

(٤) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ١٩٦/٧، ت: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٨هـ، التسهيل لعلوم التنزيل ٢٣/٢، مفاتيح الغيب ١٤٦/٢٢.

- الْكَلَاءَة أخص من غيرها من الألفاظ التي تُقاربها، فكأنَّ فيها حفظاً من نوعٍ خاص؛ إذ هِيَ إمالة الشَّيْء إِلَى جَانب يسلم فِيهِ من الآفة، وَمِنْ ثَمَّ يُقَال كلأتُ السَّفِينَة إِذا قربتها من الأَرْض، والكلاء مرفأ السَّفِينَة، فالمعنى المحوري الذي تدور حوله: «ما يحوزه باطن الحي ممَّا هو قِوامه، ويلزم منه حفظه، كما تأكل الماشية الكلأ في بطونها وهو يحفظ حياتها وتوازنها»(١).

أمَّا لفظ «الحِفظ» مثلاً فأعم؛ لِأَنَّهُ جنس الْفِعْل فَإِنْ اسْتعْملت إِحْدَى الْكَلِمَتَيْنِ فِي مَكَان الْأُخْرَى فلتقارب معنييهما.

وأمَّا «الحِراسَة»: فحفظ مُسْتَمر؛ وَلِهَذَا سُمِّي الحارس حارساً؛ لِأَنَّهُ يحرس فِي اللَّيْل كُله، أَو لِأَنَّهُ ذَلِك صناعته فَهُوَ يديم فعله، واشتقاقه من الحرس: وَهُوَ الدَّهْر، والحراسة: هُوَ أَن يصرف الْآفَات عَن الشَّيْء قبل أَن تصيبه صرفاً مستمراً، فَإِذا أَصَابَته فصرفها عَنهُ سمي ذَلِك تخليصاً وَهُوَ مصدر والاسم الْخَلَاص، وَيُقَال حرص الله عَلَيْك النِّعْمَة أَي: صرف الآفة صرفاً مستمراً، وَالْحِفْظ لَا يتَضَمَّن معنى الِاسْتِمْرَار وَقد حفظ الشَّيْء وَهُوَ حَافظ(٢).

فلو وضعتَ أية لفظة من هذه الألفاظ مكان الفريدة لوجدتَ أنَّ السِّياق القرآني لا يساعد عليه ولأعْيَاكَ ذلك، فالفريدة جاءت في سياق الاستهزاء

---

(١) المعجم الاشتقاقي المُؤصِّل لألفاظ القرآن الكريم مؤصِّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبيان معانيها للأستاذ الدكتور/ محمد حسن حسن جَبَل ص ١٩١٦، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، ط: الأولى ٢٠١٠م.

(٢) الفروق اللُّغوية ص ٢٠٥.

بأهل الكفر والشرك واستعجالهم ليوم الحساب، وهم لو وقفوا على ما سيلاقونه من نكالٍ ووبالٍ بحيث لا يستطيعون دفعه لما استعجلوه؛ فالساعة تأتي فجأة ولا رادَ لميقاتها، فجاء استفتاح الآية بصيغة الاستفهام التوبيخي التقريعي؛ لإعراضهم عن الله – ﷻ – مع أنَّه لا إله غيره يكلؤهم ويحفظهم ليلاً ونهاراً.

– ومن جمال الفريدة أيضاً أنَّها وردت على صيغة المضارع ﴿يَكْلَؤُكُمْ﴾ وكما هو معروف أنَّ صيغة المضارع أقدر الصِّيغ على تصوير الأحداث؛ لأنَّها تحضر مشهد حدوثها وكأنَّ العين تراها وهي تقع، وهذا ما هو واقع ومحسوس وملموس بين الخالق وخلقه، وكأنَّ المعنى: أرأيتم تجدُّد حفظ الله وحراسته لكم في كل حركة وسَكْنة مِنْ جَنَبات حياتكم صغيرها وكبيرها جليلها وحقيرها، فلا راعي لهم سواه سواء أكان وقت انتشارهم نهاراً طلباً للرِّزق وما يستلزمه من شمس تمدُّهم بضوئها، وأرض تُزوِّدهم بنباتها، وسماء ترويهم بمائها، أم أكان ليلاً جُنُوحاً للرَّاحة والسُّكون وما يتطلبه من قَمَرٍ ونجومٍ تُنير الكُرة الأرضية بنورها، فكل هذه الأحداث مُتجدِّدة ومُتغيِّرة لا يُنَاسِبها إلَّا صيغة المضارع، ولهذا الفعل مواقع جذَّابة في كثيرٍ من الأساليب حتى يُقصد به إلى ذلك، وترى المُتكلِّمين من ذوي الخبرة بأسرار الكلمات يُعبِّرون به عن الأحداث الهامَّة التي يريدون إبرازها وتقريرها في خيال السَّامع، وهكذا أدَّتْ الفريدة دورها على أحسن ما يكون مادة وصيغة(١).

(١) انظر: خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، تأليف: أ.د/ محمد محمد أبو موسى ص٢٦٤ بتصرُّفٍ، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ط: السابعة.

المطلب الخامس

الفريدة السادسة: ﴿نَفْحَةٌ﴾

أورد المفسرون في هذه الفريدة فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾[1] سبعة أقوال، هاك عرضها وبيانها على النَّحو التالي:

الأَوَّلُ: عُقُوبَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ، وهذا قول قتادة.

الثَّانِي: نَصِيبٌ، مِنْ قَوْلِهِمْ نَفَحَ فُلَانٌ لِفُلَانٍ مِنْ مَالِهِ إذا أعطاه قسماً وحظّاً منه، وهذا قول ابْن جُرَيْج.

الثَّالِثُ: ضَرْبَةٌ، مِنْ قَوْلِهِمْ نَفَحَتِ الدَّابَّةُ بِرِجْلِهَا إِذَا ضَرَبَتْ بها.

الرَّابِعُ: طرف من عذاب ربك، وهذا قول ابْن عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما–.

الخَامِسُ: قليل وأدنى شيء، مأخوذة من نفح المِسك، وهذا قول ابن كِيسَان[2].

السَّادِسُ: طائفة من عذاب ربك، وهذا قول الْحَسَن الْبَصْرِي (ت ١١٠هـ).

---

(١) الأنبياء: (٤٦).

(٢) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ٢٧٧/٦، مراجعة: أ / نظير الساعدي، ط: دار إحياء التراث العربي، الأولى ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م، ومعالم التنزيل ٢٩٠/٣، والجامع لأحكام القرآن ٢٩٣/١١، وابنْ كيسَان، أكثر مِنْ واحدٍ وهو هنا: عبد الرحمن بن كِيْسَان، أبو بكر الأصَم المُعْتزلي، صاحب المقالات في الأُصول، ذكره عبد الجَبَّار الهَمَذاني في طبقاتهم، كان من أفصح النَّاس وأورعهم وأفقههم، وله تفسير للقرآن، وكُتُب كثيرة ذكرها ابن النَّدِيم، توفي سنة ٢٠٠هـ، وقيل: ٢٠١هـ، وقد نَصّ الثعلبيُّ على اسمه في مقدمة تفسيره "الكشف والبيان" وجعله من مصادره، وعليه اعتمد الواحديُّ. انظر: لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ١٢١/٥، ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط: دار البشائر الإسلامية، الأولى ٢٠٠٢م، طبقات المفسرين للدَّاودي ٢٧٤/١، ٢٧٥.

السَّابِعُ: قَالَ بَعْضُهُمْ: نقمة من ربك [1].

بعد عرض الأقوال المذكورة في معنى ﴿نَفْحَةٌ﴾ تبيَّن أنَّها محتملة ومقبولة؛ إذ «المعاني إنْ لمْ تشتملْ على التَّناقض، بلْ كانَ مجرَّد اختلافٍ وتعدُّد أقوالٍ، فإنْ احتملَ اللَّفظ جميعَها وأمكنَ أنْ تكونَ مُرادة منه، وَجَبَ حملُه عليها جميعاً ما أمكنَ، سواء كانَ احتمالها متساوياً، أم كانَ بعضُها أرجح منْ بعضٍ، وإلَّا فحمله على بعضِها دونَ بعضٍ إلغاء للَّفظِ بالنسبةِ إلى بعضِ محتملاتِه منْ غيرِ مُوجبٍ وهو غيرُ جائزٍ، ولأنَّه لو جازَ أنْ يكونَ مُراداً، فإعمَال اللَّفظِ بالنِّسبةِ إليه أَولَى منْ إهمالِه»[2].

لكن لِمَا عدل الذكر الحكيم عن غيرها من الألفاظ وهو موجود في القرآن، وآثر الإتيان بلفظة فريدة ؟

– إنَّها أَوْفَى في التعبير عن المراد؛ لأنَّها تحمل في طَيَّاتها المعاني السابقة كلها، ويقبلها سياق الكلام، وغيرها لا ينهض بأداء تلك المعاني، ومِنْ ثَمَّ فهي أوجز وأفصح؛ لأنَّها عبَّرت عن المعاني الكثيرة بلفظة واحدة، فوضعت الفريدة في مكانها الأحق بها التي لا يمكن لغيرها أن يسد مسدها.

– «النَّفْحة» في العادة والوضع اللُّغوي يَغْلُب استعمالها في مواطن الرحمة والخير والبِشْر والسُّرور والطيب، فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ – ﷺ – قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا

(١) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) لأبي منصور الماتريدي ٣٤٩/٧، ت: د/ مجدي باسلوم، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

(٢) انظر: الإكسير في علم التفسير لسليمان بن عبد القوي الصرصري (ت ٧١٦هـ) ص ٤١، حقَّقه: أ.د/ عبد القادر حسين، الناشر: مكتبة الآداب بالقاهرة، ط: الثانية.

إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ ... فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ»(١).

لكنها جاءت هنا في الآية في سياق العذاب على سبيل التهكم والازدراء بالظالمين(٢) فنفى عنها معناها المباشر وطبيعتها المعروفة، ليصير المقصود المعنى الأسلوبي المفارقي وهو نقيض ذلك المعنى المعجمي المباشر تماماً؛ ليُلفت السَّامع إلى أنَّ هذا العذاب الذي يمسهم الله به هو أقلُّ العذاب، وهو يعتبر نعمة ورحمة بالنسبة إلى العذاب! فكيف إذا وقع بهم العذاب نفسه لا نفحة منه ؟!

وما أشدُّ النفحة حينما تضاف إلى المنتقم الجبار، الذي يستحق منهم الشكر والعبادة، فقد أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، لكنهم تمرَّدوا عليه وكفروا به، ممَّا جعلهم يستحقون عذابه، ألا إنَّ عذابه أليم شديد.

– هذه الفريدة قد دلَّت بمادتها وصيغها على القِلَّة والنَّزارة والحقارة فلا يُوجد في غيرها من الألفاظ ما يؤدي دورها، يُقال: نفح فلان فلاناً نفحة، إذا أعطاه شيئاً قليلاً، ونفح الفَرسُ فلاناً بحافره إذا أصابه إصابة خفيفة، ولم يبلغ في إيلامه الغاية، فكأنَّ النَّفْحَة هاهنا قدر يسير من العذاب، يدلُّ واقعه على عظيم مُتوقعه، وشاهده على فظيع غائبه، فإذا كانت النَّفحة الواحدة تُذكِّرهم بالويل المُنتظر وبالظلم الذي اكتسبوه، فما بالهم بما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٩٩/٣٠، ٥٠٣ برقم ١٨٥٣٤ وقال شعيب: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، ت: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، ط: الرسالة، الأولى ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤٩/٣، ٥٠ برقم ٤٢٦٦، وقال: هُوَ فِي الصَّحِيحِ وَغَيْرِهِ بِاخْتِصَارٍ، رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن ص ٨١٦ بتصرُّف.

وراءها من نفحات ولفحات الجحيم ؟![1]

وفيها أيضاً الدلالة على الْمَرَّة والواحدة، فضلاً عن التنكير الذي أكْسبها دناءة أي: نفحة واحدة من عذاب ربك لا ثاني لها تكفي لتشتيت أمرهم وتوهين كيانهم وتصدع صفوفهم حتى ولو كانت شيئاً حقيراً جدًّا، وتافهاً ضعيفاً لا يؤبه له، فكيف إذا عُززت بثانية أو ثالثة؟ وَلَمْ يَأْتِ التَّعبير «نَفْحٌ»؛ إذ الْمَعْنَى: أَنَّهم بِأَدْنَى إِصَابَةٍ مِنْ أَقَلِّ الْعَذَابِ أَذْعَنُوا وَخَضَعُوا وَأَقَرُّوا بِأَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ ظُلْمُهُمُ السَّابِق[2].

فتأمل كيف يكون العذاب شديداً ومؤثراً مع هذه القِلَّة التي صوَّرها وذكرها هذا النَّظم البديع، وذلك ممَّا يُحرِّض الإنسان العاقل على التَّيقظ وعدم الغفلة عن النَّار الحامية التي وقودها النَّاس والحِجارة.

يقول مولانا الشيخ الشعراوي (ت ١٤١٨هـ): (النَّفْحَةُ: هي الرِّيح اللَّيِّنَة التي تحمل إليك آثارَ الأشياء دون حقيقتها، كأنْ تحمل لك الريحُ رائحة الورود مثلاً، هي لا تحمل لك الوورد نفسها إنَّما رائحتها، وتظل الورود كما هي، كذلك هذه المسَّة من العذاب، إنها مجرد رائحة عذاب، كما نقول لفح النار الذي نشعر به، ونحن بعيدون عنها، والنَّفْحَة: اسم مرَّة أي: تدل على

---

(١) الموسوعة القرآنية، خصائص السور، تأليف: جعفر شرف الدين ٢٩٨/٥، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٠هـ.

(٢) انظر: الكشاف ١١٩/٣، والبحر المحيط ٤٣٥/٧، وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش ٣٢٢/٦، ط: دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، الرابعة ١٤١٥هـ.

حدوثها مرة واحدة، كما تقول: جلس جَلسة أي: مرة واحدة، وهذا أيضاً دليل على التقليل، فـ ﴿مسَّتْهُمْ﴾ تقليل، و﴿نَفْحَةٌ﴾ تقليل، وكونها مرة واحدة تقليل آخر، ومع ذلك يضجُّون ويجأرون، فما بالك إنْ نزل بهم العذاب على حقيقته، وهو عذاب أبديّ ؟!)[1].

– أنَّ تلك الفريدة دون غيرها من الألفاظ أخف نطقاً، وأسْلَس لفظاً، وألذ سمعاً، كما هو ظاهر لكل متأمل ممعن للنظر في هذه المفردة، والألفاظ الأخرى إن صح أنها تحمل معناها وحاولت وضع ما يسمى بالمترادفات مكانها لما دلَّت حروفها على هذه اللَّطائف، ولفقد هذا النغم المنساب من هذه الفريدة، فلو قلت مثلاً «قطعة» لصرت إلى كلام غثٍّ، وأسلوب سَمْج مرذول لا طعم له ولا رونق ولا رواء كما ترى وتحس.

إنَّ الفريدة جاءت في سياق بيان الضَّعف البشري أمام جبروت الخالق تَبَارَكَ وتَعَالَى، خاصَّة وأنَّ السُّورة ورد فيها جانب من قصص الأنبياء مع أقوامهم الذين غرَّتهم قوَّتهم وجاههم، فأراد الله بيان ضعفهم أمام العذاب الخفيف القليل النَّازل بهم، فأتى بكلمات كلها تتَّجه إلى إظهار الغرض المُراد وهو وصف للعذاب بالضآلة والحقارة، كعادة القرآن في «التناسق الكامل والتآلف التام بين العبارة والموضوع الذي يراد تقريره والمعنى الذي يراد بيانه وتوضيحه؛ فالألفاظ في النظم يلائم بعضها بعضاً وهي كلها متوجهة إلى الغرض المنشود، فهي تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها»[2].

---

(١) تفسير الشعراوي، الخواطر ٩٥٥٢/١٥.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن، د/ مصطفى مسلم ص ١٣٥: ١٣٧، ط: دار القلم، دمشق، الثالثة ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

– ربما استدعت البنية الصوتية لكلمة ﴿نَفْحَةٌ﴾ كلمة أُخرى تدنو منها في البنية، وتخالفها في المدلول ألا وهي كلمة ﴿لَفْحَةٌ﴾ وهو نوع من العلاقات الإيحائية التي يعني بدراستها علم اللُّغة الحديث تحت مبحث «علاقة العلامة بالعلامات الأُخرى»، ففضلاً عن العلاقة التركيبية(١)، هناك العلاقة الإيحائية التي تعني أنَّ العلامة يمكن أنْ تُوحي بعلاماتٍ أُخرى مشابهة لها من الناحية النحوية أو من حيث معناها أو من حيث التشابه الصوتي، ويُنبِّه علماء اللُّغة المُحدثون إلى أنَّ العلاقات الإيحائية علاقات غيابية جائزة تعتمد على الذاكرة، أمَّا العلاقات التركيبية فهي علاقات حاضرة؛ لأنَّها تعتمد على لفظتين أو أكثر جميعها حاضرة في سلسلة حقيقية أو تعاقب حقيقي (٢).

ويتساوق المعنى العام السابق مع استخدام «إنْ» بخاصة أداة للشرط هنا؛ لتدل على أنَّ وقوع مثل هذا المس الخفيف فحسب، كان لتنبيههم أنَّهم كانوا ظالمين، وإذا كان هذا الأمر مُتيقن الوقوع، فهو مُبهم الوقت، ولذلك جاز استعمال «إنْ» بدلاً من «إذا».

---

(١) **العلاقة التركيبية**: هي علاقات العلامة بالعلامات التي تسبقها وتتبعها، أو تلك التي تحتويها أو تقع فيها، وهذه العلاقات نتيجة حقيقة معينة، وهي أنَّ العلاقات التي يتألَّف منها جزء من الكلام تنتظم في خط تعاقب زمني. انظر: علم اللُّغة الحديث، الأُسس الأولى لرولون س. ويلز، ترجمة: د/ يوئيل يوسف عزيز ص ٤٨، ٤٩، ط: دار الشئون الثقافية العامة بوزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٦م.

(٢) المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، أ.د/ محمد العبد ص ٨٠، ٨١، ط: دار الفكر العربي، الأولى ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

من ناحية أخرى، فإنَّ هذا المعنى يتوافق مع دخول اللام على «إنْ» وهي هنا اللام الْمُؤْذِنَة أي: اللام الدَّاخلة على أداة الشرط، بعد تقدم القسم تقديراً؛ لِتُؤْذِن أنَّ الجواب له لا للشرط، أو لِلْإِيذَان بأنْ ما بعدها مَبْنِيٌّ على قسم قبلها، وتسمَّى أيضاً المُوطِّئة؛ لأنَّها وطَّأت الجواب للقسم أي: مَهَّدَتْهُ[1]، ثُمَّ إنَّ العذاب لم يُضف إلى اسم فيه دلالة على القهر والجبروت، بل أُضيف إلى اسم فيه معنى الرَّحمة والشَّفقة والرَّأفة وهو ﴿رَبِّكَ﴾، ثُمَّ أُضيف لفظ «الرَّب» إلى مُقرَّبٍ محبوبٍ وهو ضمير خطاب رَسُول اللَّهِ – ﷺ –، فكل ألفاظ الآية الكريمة تُجلِّي بعض آثار لُطف الله تَعَالَى بخلقه، فلكل لفظ رسالة، بل لكل حركة داخل المُفردة القرآنية غاية يخدم بعضها بعضاً بحذفها ينعدم أداء المعنى ويختل تحقيق المراد.

– تومئ هذه الفريدة التي حكاها القرآن عن حال هؤلاء الكافرين عند نزول جانباً من العذاب عليهم مدى سرعة تأثُّرهم به؛ فهذه النَّفْحَة فريدة في نوعها وحجمها لا تضاهيها أي نَفْحَةٍ أخرى، فهم عندما وصل العذاب إليهم اعترفوا بذنوبهم وأقرُّوا بما ارتكبوه من جرائم ومُوبقات، وعَلَتْ أصواتهم بالصِّياح والعَويل حتى إنَّهم دعوا على أنفسهم بالويل والهلاك، ونسوا ما كانوا عليه من عِزَّة وشُمُوخ وتعالٍ، وندموا في وقتٍ لا ينفع فيه النَّدم «ولاتَ سَاعَةَ مَنْدَم»، وفي لَحْظَة لا يجدي فيها الاعتراف بعد فوات الأوان، لذا تفرَّد موضعها في كِتاب الله – ﷻ –، فلمْ تأت في أي سياق آخر سواء أكان خيراً أم شرَّاً.

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣٣٨/٤.

المطلب السادس

الفريدة السابعة: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾

قبل الشروع في بيان لطائف هذه الفريدة الواردة فِي قوله تَعَالَى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾[1]، يجدر بي الإشارة إلى هذه الحادثة التي وردت فيها هذه الفريدة، قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: دَخَلَ رَجُلَانِ عَلَى دَاوُد – عليه السلام –، أَحَدُهُمَا صَاحِب حَرْثٍ وَالْآخَر صَاحِب غَنَمٍ فَقَالَ صَاحِب الْحَرْثِ: إِنَّ غَنَمَ هَذَا دَخَلَتْ حَرْثِي وَمَا أَبْقَتْ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ دَاوُد – عليه السلام –: اذْهَبْ فَإِنَّ الْغَنَمَ لَكَ، فَخَرَجَا فَمَرَّا عَلَى سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: كَيْفَ قَضَى بَيْنَكُمَا؟ فَأَخْبَرَاهُ: فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا الْقَاضِيَ لَقَضَيْتُ بِغَيْرِ هَذَا، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ دَاوُد – عليه السلام – فَدَعَاهُ، وَقَالَ: كَيْفَ كُنْتَ تَقْضِي بَيْنَهُمَا، فَقَالَ: أَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِب الْحَرْثِ فَيَكُونُ لَهُ مَنَافِعُهَا مِنَ الدَّرِّ وَالنَّسْلِ وَالْوَبَرِ حَتَّى إِذَا كَانَ الْحَرْث مِنَ الْعَامِ الْمُسْتَقْبَل كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ أُكِلَ دَفَعْتُ الْغَنَمَ إِلَى أَهْلِهَا، وَقَبَضَ صَاحِبُ الْحَرْثِ حَرْثَهُ[2].

وقد ذكر أهل العلم في حكمهما قولان:

أحدهما: أنهما اتَّفقا ولم يختلفا فيه؛ لأنَّ الله حين أثنى عليهما دلَّ على اتقافهما في الصَّواب، ويحتمل قوله ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ على أنه فضيلة له على دَاوُد – عليه السلام –؛ لأنه أُوتي الحُكم في صِغره، وأُوتِي دَاوُد – عليه السلام – الحُكم في كِبره، ولأنَّ الأنبياء معصومون من الغلط والخطأ لئلا يقع الشَّك في أمورهم وأحكامهم، وهذا قول بعض المتكلمين.

ثانيهما: قول الجمهور من العلماء والمفسرين إنَّ حكمهما كان مختلفاً أصاب

---

(١) الأنبياء: (٧٩).

(٢) مفاتيح الغيب ٢٢/١٦٤.

فيه سليمان – عليه السلام –، وأخطأ دَاوُد – عليه السلام –، فأمَّا حكم دَاوُد – عليه السلام – فإنه قضى لصاحب الحرث، وأمَّا حكم سليمان – عليه السلام – فإنه رأى أنْ يدفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بدرّها ونسلها، ويدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليأخذ بعمارته، حَتَّى يَعُودَ كَالَّذِي كَانَ لَيْلَةَ نَفَشَتْ فِيهِ الْغَنَمُ، فرجع دَاوُد – عليه السلام – إلى قضاء سُلَيْمَان – عليه السلام – فحكم به، فقال الله ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فجعل الحق معه وفي حكمه، ولا يمتنع وجود الخطأ من الأنبياء كبشر، لكن لا يُقَرُّونَ عليه وإن أُقِرَّ عليه غيرهم، ليعود الله بالحقائق لهم دون خلقه، ولذلك تسمى بالحق وتميز به عن الخلق(١).

* وإذا كان معنى الفريدة ﴿فَفَهَّمْنَاها﴾: عَلَّمْنَاهُ الْقَضِيَّة وأَلْهَمْنَاها سُلَيْمَانَ – عليه السلام –، فلماذا عبَّر الله بها هنا في الآية دون غيرها من الألفاظ ممَّا يُمْكِن أنْ يحل محلها نحو «علمناه ...» إلخ ؟ ولعلَّ السِّر في ورودها فريدة في القرآن يرجع إلى أمور منها:

– أنَّ هذه الفريدة أوفق بسياق الكلام من غيرها؛ لأنَّ الحكم في هذه القضية لم يكن نتاج تفكير وإمعان نظر وتأمل طويل ممَّا قد يقتضيه لفظ العلم بل – كما يُفْهَم من السِّياق – كان وليد اللَّحظة أدخله المولى – عز وجل – في قلب سُلَيْمَان – عليه السلام – ساعتئذ، وأفهمه له من حينه، فهو شيء أُلهم به سُلَيْمَان – عليه السلام – إلهاماً، وأُلقي به في روعه إلقاء سريعاً، دون حاجة إلى تقليب النظر، وإطالة التأمل فيها، فالفهم يدل على سرعة الادراك دون التأمل والتَّعمق والإحاطة، واستنباط الأدلة وكشف الغامض(٢).

---

(١) النكت والعيون للماوردي ٤٥٧/٣، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) انظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم ص ٣٦١، ٣٦٢.

– تدلُّ الفريدة على أنَّ فهمه للمسألة إنَّما وقع من نصوص ما كان عندهم من الشَّرع، لا أنَّه– تعالى– أنزل عليه فيها وَحْياً جديداً ناسخاً وإلَّا لما ساغ الخلاف بينهما(١).

يُشير إلى ذلك حروف هذه الفريدة لمن يُجريها على لسانه، فالهمس والرَّخاوة اللَّتان في الفاء، وجرس الهاء المفتوحة الخارجة من الحلق، وهي تحمل دفقة هوائية دون عائق وما فيها من سَلاسَةٍ وسهولةٍ، والميم التي جمعت بين الشِّدة والرَّخاوة، كل هذا يحكي فراهة تلك البِنْية واستطالتها وحسنها وجمالها، وتناغمها مع بعضها، ودلالته على المراد من لفظها.

– أومأت الفريدة إلى حالة عجيبة في دنيا النَّاس؛ إذ المعتاد المتعارف عليه أنَّ يكون الأكبر سناً هو الأصوب في الحكم على صحة الأشياء، والبتْ فيها من الصغير الذي لم تعركه الحياة بتجاربها وخبراتها مثلما عركت الكبير، فلم جاء الأمر هنا على غير المعتاد والمتوقع في دنيا النَّاس عبر بهذه الفريدة للإيماء إلى ذلك.

– قد تدل هذه الفريدة على أنَّ الله – ﷻ – مكَّن سُلَيْمَان – عليه السلام – من فهم تلك القضية أكثر من دَاوُد – عليه السلام –، ولم يبتعد دَاوُد – عليه السلام – عن الصواب في فهمها، فَمَعْنَى ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾: «أَنَّهُ أَلْهَمَهُ وَجْهًا آخَرَ فِي الْقَضَاءِ هُوَ أَرْجَحُ لِمَا تَقْتَضِيهِ صِيغَةُ التَّفْهِيمِ مِنْ شِدَّةِ حُصُولِ الْفِعْلِ أَكْثَرَ مِنْ صِيغَةِ الْإِفْهَامِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ فَهْمَ سُلَيْمَانَ فِي الْقَضِيَّةِ كَانَ أَعْمَقَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَرْفَقُ بِهِمَا، فَكَانَتِ الْمَسْأَلَةُ مِمَّا يَتَجَاذَبُهُ دَلِيلَانِ فَيُصَارُ إِلَى التَّرْجِيحِ، وَالْمُرَجِّحَاتُ لَا تَنْحَصِرُ، وَقَدْ لَا تَبْدُو لِلْمُجْتَهِدِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ عِلْمَ سُلَيْمَانَ

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤/١٧٠.

عِنْدَ أَبِيهِ لِيَزْدَادَ سُرُورُهُ بِهِ، وَلِيَتَعَزَّى عَلَى مَنْ فَقَدَهُ مِنْ أَبْنَائِهِ قَبْلَ مِيلَادِ سُلَيْمَانَ» (١).

– قد تدل الفريدة أيضاً على أنَّ الله – ﷻ – اختص سُلَيْمَانَ – عليه السلام – بالحكمة في فهم كثير من القضايا عن أبيــه دَاوُد – عليه السلام – ولا ينقص هذا من قدر دَاوُد – عليه السلام –؛ إذ قد يختص نبي بصفةٍ ما لا تكون في غيره من الأنبياء، ومِنْ ثَمَّ وجدنا النظم الكريم يُعقِّب الفريدة بقوله ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ أي: كُلًّا منهما اختصه الله بحكم وعلم لم يؤته لغيره، أو انفرد كل منهما عن الآخر بعلم لم يكن للآخر، وهذا من أفضال الله – ﷻ – على هذين النَّبيين الكريمين.

«فالله لمَّا لمْ يُخطئ دَاوُد – عليه السلام – دلَّ على أنَّ كُلاً منهما مُصيب، وتخصيص سُلَيْمَان – عليه السلام – بالتفهيم لا يدل على خطأ دَاوُد – عليه السلام –؛ لجواز كون كل مصيباً، ولكن هذا أرفق وذاك أوفق بالتحريض على التَّحفظ عن ضرر الغير»(٢)، فدَاوُد كما يقول العلماء قد اتجه في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث، وهذا عدل فحسب، أمَّا حكم سُلَيْمَان فقد تضمَّن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العدل دافعاً إليهما، وهذا هو العدل الإيجابى في صورته البانية، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء من عباده(٣).

---

(١) التحرير والتنوير ١١٨/١٧.

(٢) حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، تأليف: شهاب الدين أحمد بن عمر الخفاجي ٢٦٦/٦، دار النشر: دار صادر، بيروت.

(٣) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم للإمام الأكبر أ.د/ محمد سيد طنطاوي ٢٣٥/٩، ط: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، فبراير ١٩٩٨م.

– تشير الفريدة – من طرف خفي– إلى أنَّ هذا الحكم الذي أفهمه الله – ﷻ – لسُلَيْمَان – عليه السلام – في معالجة تلك الحادثة كان في بداية عهده بالملك والنبوة، وكأنَّه تجريب وتدريب له على كيفية قيادة رعاياه وجنوده من الإنس والجن والطير والحشرات، وسياستهم بقوة وحزم واقتدار ممَّا لم يعطه لأحد آخر من الأنبياء، فأومأت الفريدة – والله أعلم – إلى ما اختص الله – ﷻ – به سُلَيْمَان – عليه السلام – من إتقان سياسة التعامل في كل ما يَعِنّ له من أمر، ومن هنا عرف بسُلَيْمَان الحكيم، وكانت مملكته أعظم الممالك حينئذ بفضل سياسته الحكيمة القائمة على فهم الأمور بدقة والتعامل معها بحكمة.

وإنْ شِئتَ اقرأ الآيات التي جاءت تلي القصة بعد هذه الفريدة: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ * وَمِنَ الشَّياطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ﴾(١).

وفي سُورة النَّمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(٢).

وفي سُورة ص: ﴿قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ* فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ * وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ * هَذا عَطاؤُنا

(١) الأنبياء: (٨١: ٨٢).
(٢) النَّمل: (١٦: ١٧).

فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾[1].

إذاً فسُلَيْمَان سيكون مُلكه أوسع وأرحب ومُتنوِّعاً من أبيه دَاوُد عَلَيْهما السَّلَامُ، وهذا يحتاج إلى نظامٍ قضائي مُكافئ، لكل هذا لكي يضمن استقرار وإعمار دولته ومملكته فكان ذلك ناتجاً عن ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾، ولذا ورد عنه بعض المواقف التي تدلُّ على حِكمته وحُسْن تصرُّفه وسِعَة فَهْمه في معالجة القضايا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ، فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ أَنْتِ، وَقَالَتِ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ، فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا يَرْحَمُكَ اللهُ، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى» [2].

وهذا تعليم للملوك وللسَّاسة بمحاولة فهم طبيعة شعوبهم فهماً جيداً وسياستهم لها سياسة رشيدة حكيمة يلينون لهم حيناً، ويشددون حيناً[3]، وقد جاء في الأثر «إِنَّ اللَّهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ» [4].

---

(١) ص: (٣٥: ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قَوْلِ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ١٦٢/٤ برقم ٣٤٢٧، ومسلم، كتاب الْأَقْضِيَة، باب بَيَان اخْتِلَاف الْمُجْتَهِدِينَ ١٣٤٤/٣ برقم ١٧٢٠ واللفظ له، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) انظر: الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية ص ٢٠١: ٢٠٣.

(٤) من كلام سيدنا عُثْمَان بْن عَفَّان - ﷺ - مَوْقُوفًا عليه. انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب لأحمد بن عبد الوهاب، شهاب الدين النويري ٦/٣، ط: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط: الأولى ١٤٢٣هـ.

- المُلاحظ أنَّ الفريدة جاء الماضي فيها مُضعَّفاً وذلك للدَّلالة على التَّمكن وقُوَّة الفهم؛ إذ الفَهْمُ: تصور الْمَعْنى من لفظ الْمُخَاطب، وهو مَا يُمَيِّز وَيُدبر كل فعل أَنه عدل أَو ظلم، وَقيل: إِدْرَاك الْأَشْيَاء الْجُزْئِيَّة(١)، وقيل: إدراك خفي دقيق، فهو أخص من العلم؛ لأنَّ العلم نفس الادراك سواء كان خفياً أم جلياً، لذا خُصَّ الفَهْم بسُلَيْمَان، وعَمَّ العلم لداود وسُلَيْمَان - عَلَيْهِما السَّلَامُ -(٢).

وقد عرَّفه علماء النَّفس في العصر الحديث «عملية عقلية أكبر من مُجرَّد التَّعرُّف على شيء، أو تحصيل معلومات، بل إنه يعني التمثيل والاستيعاب للتفاصيل، وبالمقدار الذي يجعل الفرد قادراً على المعالجة الخارجية، والإسهام حيث يتطلَّب الأمر ذلك»(٣).

وهذا المفهوم النفسي المعاصر يتقارب مع النَّظرة القرآنية لمصطلح «الفَهْم» كما سبق بيانه، حيث يتضمَّن إدراك معاني الكلام والإحاطة به، وعليه يُمكِن تقديم المشورة أو إبداء الرأي والحل.

---

(١) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم لجلال الدين السيوطي ص ٧٦، ٢٠٠، ت: أ. د/ محمد إبراهيم عبادة، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط: الأولى ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.

(٢) معجم الفروق اللُّغوية لأبي هلال العسكري ص ٤١٤، ت: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، ط: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـــ «قم»، ط: الأولى ١٤١٢هـ.

(٣) مَوسُوعة علم النَّفس والتَّحليل النَّفسي، د/ فَرج عبد القادر ص٦٠، ط: دار سُعاد الصَّبَاح، الكويت، الأُولى ١٩٩٣م.

وقد تكلَّم ابن القيم (ت ٧٥١هـ) كلاماً نفيساً عن الفَهْم عند تفسيره لهذه الفريدة فقال: (فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه، فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء حتى عُدَّ ألف بواحدٍ.)[١]

– تعكس هذه اللَّفظة تفرُّد هذا الموضع في قِصَّة سُلَيْمَان – عليه السلام – في القرآن، فلم يرد الحديث عن تلك الحادثة إلَّا في هذا الموضع من سُورة الأنبياء فحسب.

(١) تفسير القرآن الكريم ١/٤٤، ت: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، ط: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الأولى ١٤١٠هـ.

المطلب السابع

الفريدة الثامنة: ﴿ذَا النُّونِ﴾

اتَّفق المفسرون على أنَّ لُقِّبَ «ذَا النُّونِ» الوارد فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾(١)، المُراد به: يُونُس بْن متَّى - عليه السلام -؛ لابْتِلَاعِ الْحُوتِ لَهُ، ثُمَّ أخرجه من جوفه كما قال - عز وجل -: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾(٢)، فالنُّون مِنْ أَسْمَاءِ الْحُوتِ، وَقِيلَ: سُمِّيَ «ذَو النُّون»؛ لِأَنَّهُ رَأَى صَبِيًّا مَلِيحًا فَقَالَ دَسِّمُوا نُونَتَهُ(٣) لِئَلَّا تُصِيبَهُ الْعَيْنُ(٤).

فسُمِّي باسمين مختلفين: أحدهما: اسم موضوع، والآخر: مشتق من فعله وما كان، وهو ما سمى عِيسَى - عليه السلام - مرة، وسماه مسيحًا أخرى؛ لأنَّه كان يمسح المرضى والموتى فيبرءون(٥).

قال الفَخْر الرَّازِي: (لَا خِلَافَ فِي أَنَّ ذَا النُّونِ هُوَ يُونُس - عليه السلام -؛ لِأَنَّ النُّونَ هُوَ السَّمَكَةُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الاسْمَ إِذَا دَارَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ لَقَبًا مَحْضًا وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ مُفِيدًا، فَحَمْلُهُ عَلَى الْمُفِيدِ أَوْلَى، خُصُوصًا إِذَا عُلِمَتِ الْفَائِدَةُ الَّتِي يَصْلُحُ لَهَا ذَلِكَ الْوَصْفُ)(٦).

---

(١) الأنبياء: (٨٧).

(٢) الصافات: (١٤٢).

(٣) دَسِّمُوا نُونَتَهُ: هُوَ السَّواد الَّذِي يُجْعَل خَلْف الأُذُن؛ لكَيْلا تُصِيبَه العَيْن، ولَا يكون إلا قَلِيلاً. تاج العروس ١٥٤/٣٢، ونُونَةَ الصَّبِيِّ: هِيَ النُّقْبَةُ أو النُّقْبَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي ذَقَنِ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ. تهذيب اللُّغة للأزهري ٤٠٢/١٥، ت: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى ٢٠٠١م.

(٤) انظر: فتح القدير ٤٩٦/٣.

(٥) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) ٣٦٩/٧.

(٦) مفاتيح الغيب ١٧٨/٢٢.

- **وما دام الأمر كذلك فلماذا أتى بهذه اللَّفظة وحيدة مادة وصيغة، وفي القرآن ما يقوم مقامها ومُسْتَعْمَل فيه ؟**

أرى – والله أعلم – أنَّ في الفريدة دلالات ولطائف لا توجد في غيرها منها:

– أن لفظة «النُّون» جاءت في حديث الله – تَبَارَك وَتَعَالَى – المباشر عن يُونُس بْن مَتَّى – عليه السلام –، أمَّا «الحوت» فقد ورد في سياق الحديث عن الرَّسُولِ – ﷺ – بذكر أخبار الأنبياء قبله تسلية له؛ لما كان يعانيه من كفار مكَّة، والخطاب فيها موجه له – ﷺ – مباشرة كما يظهر ذلك من خلال استقراء الآيات.

فاختلاف اللَّفظتين لاختلاف السِّياقين، وكل لفظة التأمتْ مع سياقها التئاماً شديداً، وليس هذا من قبيل التنوع أو التفنن في الأسلوب دون غرض– حاشا وكلا – بل هناك فائدة تُرتجى من جراء هذا الاختلاف تتمثل: «في أنَّ بين اللَّفظتين تفاوتاً كثيراً في حسن الإشارة إلى الحالتين، وتنزيل الكلام في الموضعين، والإضافة بذي أشرف من الإضافة بصاحب لأنَّ قولك: «ذو» يضاف بها إلى التَّابِع، و«صاحب» يُضَاف بها إلى المتبوع»[1].

قال الإمام السُّهَيْلِي: (أضافه هنا إلى النُّون، وقد قال في سورة القلم: ﴿وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ﴾[2]، وذلك أنَّه حين ذكره في موضع الثناء عليه قال «ذَو النُّونِ» فإنَّ الاضافة بذي أشرف من الإضافة بصاحب؛ لأنَّ قولك ذو يضاف إلى التَّابِعِ، وصاحب إلى الْمَتْبُوعِ تقول أَبُو هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه –

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٤/٩٧.
(٢) القلم: (٤٨).

صاحب النَّبيِّ – ﷺ –، ولا تقول النَّبيُّ صاحب أَبي هُرَيْرَةَ إِلَّا عَلَى جِهَةٍ ما، وَأَمَّا ذُو فَإِنَّكَ تَقُولُ فِيهَا ذُو الْمَالِ وَذُو الْعَرْشِ فَتَجِدُ الِاسْمَ الْأَوَّلَ مَتْبُوعًا غَيْرَ تَابِعٍ، ولِذَلِكَ سُمِّيَتْ أَقْيَالُ حِمْيَرَ بِالْأَذْوَاءِ نَحْوَ قَوْلِهِمْ ذُو جَدَنَ ذو يزن، وفي الْإِسْلَامِ أَيْضًا ذُو الْعَيْنِ وَذُو الشَّهَادَتَيْنِ وَذُو الْيَدَيْنِ وذلك كله تفخيم للمسمى بهذا، وليس ذلك في لفظ صاحب وإنَّما فيه تعريف لا يقترن به شيء من هذا المعنى، ولفظ النُّون أشرف من الحوت؛ لوجوده في حروف التهجي وفي أوائل بعض السُّور نحو: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾)[1].

ولفظ «الْحُوت، الصَّاحِب» لمَّا ذكره الله تَعَالَى جاء به في معرض النَّهْي عن اتِّباعه في فعله هذا: ﴿وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ﴾، بخلاف «ذَو النُّون» حيث جاء في سياق التَّضرع إلى الله– ﷻ – في أنْ يصرف عنه ما حلَّ به.

– في هذه الفريدة غرابة في الاستعمال وقِلَّة في التداول، وهذه الغرابة اتَّسقت مع غرابة فعل يُونُس بْن مَتَّى – ﷺ –؛ إذ خرج مغاضباً لقومه لطول ما ذكَّرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم، فلم يفعله إلَّا غضباً لله وأنفة لدينه، وبغضاً للكفر وأهله، وتفريجاً لغضبه، وتوسيعاً لصدره، وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم[2]، لكنه خرج دون إِذْن ربه ولم يصبر: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [3]، ثُمَّ عِتاب الله له على ذلك، وإنجاؤه من بطن الحوت في سابقة لم تحدث لأحدٍ في تاريخ البشرية

---

(١) روح البيان لإسماعيل حقي ٥١٦/٥، الناشر: دار الفكر، بيروت، وإعراب القرآن وبيانه ٣٥٦/٦.

(٢) انظر: الكشاف ١٣١/٣.

(٣) القلم: (٤٨).

جَمْعَاء، ولذلك نُسِب إلى الحوت تشريفاً له، وتذكيراً بفضل الله عليه، وتعليماً للمؤمنين بعدم اليأس مع ذكر الله تَعَالَى فإنَّه المُنجِّي من كل هَمٍّ وغَمٍّ وكرب(١)، فعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٢)، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ» (٣).

– ولو تأملت هذه الفريدة لوجدتَ أنَّ حرف النُّون تخفى مع حُرُوفِ الفَمِ خاصَّة لقُرْبِها منه، وتَبين مع حُرُوف الحَلْق عامَّة لبُعْدِها منه، وهذا يُناسِب حال الحُوت عندما أغلق فمه على يُونُس بْن مَتَّى – عليه السلام – فأصبح قريباً منه مُلتصقاً به، ثُمَّ عندما لَفَظَهُ صار خارج بطنه فأصبح بعيداً عن حَلْقِه، وهكذا صورت الفريدة بإيقاع حروفها، ونغـم أصواتها المعنى أوفق تصوير كما نحسه ونلمسه.

– هذه الفريدة تُشير إلى أنَّ لقب سيدنا يُونُس بْن مَتَّى – عليه السلام – بـ «ذي النُّون» يتشابه كثيراً مع حال قومه وما تركهم عليه من ظلمات الجهل والكفر والتقليد الأعمى، وحاله أيضاً وهو داخل هذا الحوت حيث واجه ظلمات ثلاث: ظُلمة اللَّيل، ظُلمة قاع البحر، ظُلمة الحُوت؛ إذ الحوت يكون

(١) انظر: الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية ص ٢٢٨، ٢٢٩.
(٢) الأنبياء: (٨٧).
(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥٢٩/٥ برقم ٣٥٠٥، والحاكم في المستدرك ٦٣٧/٢ برقم ٤١٢١، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، ووافقه الذَّهبي وقال: صحيح.

في أعماق البحر، وهي مظلمة، والجزء من البحر الذي فيه نور هو مقدار خمسين أو مائة متر من سطح البحر، وتحت ذلك ظلمات البحر.

لقد رأى يُونُس – عليه السلام – داخل أحشاء الحوت الساخنة الملتهبة المتلاصقة الضيقة، نفس أُسلوب الحياة والغابة المتوحشة التي تركها خَلْف ظهره في قومه: الكبير يأكل الصغير، القوي يلتهم الضعيف، فأي مكان آخر غير بطن الحوت يتجسم فيه ذلك كله بطريقة مباشرة؛ لذا تغيرت طريقة دعوته بعد خروجه من بطن الحوت، خرج منه شخصاً آخر متحمِّساً لديه أمل في النَّجاح والقدرة على التغيير والثِّقة في الله العليم القدير.

– الفريدة تلفِت الأنظار إلى قدرة الله تَعَالى خاصَّة وأنَّ السُّورة مكِّيَّة، فالتقام الحوت ليُونُسَ – عليه السلام – ومُكثه في بطنه حيناً من الزمن حيًّا يُرزق، ثُمَّ نبذه في ذلك الفضاء لا يقدر عليه إلَّا الخالِق – جَلَّ وَعَلا –؛ إذ «الحِيتان تمتاز عن بعض المخلوقات بأنَّها قد بلغت درجة من الضخامة لم يصل إليها أي حيوان بحري فى الماضي أو الحاضر، ويبدو الإنسان أمام تلك الحيتان العملاقة وكأنَّه دُمية صغيرة، فقد يصل طول الحوت إلى ما يقرب من ثلاثين متراً أو يزيد.

وحُوت العَنْبَر يصل طوله إلى أنْ يكون تسعين متراً، وهو يستطيع أنْ يزدرد سمكة القرش الهائلة ويهضمها على مهلٍ، كما أنَّها لا تتوانى عن مهاجمة الإنسان إذا وجدت إلى ذلك سبيلاً»[1].

---

(١) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوي ٣٤٩٢/٧، ط: دار السلام، القاهرة، الأولى ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م، وموسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي لعبد اللطيف عاشور ص١٦١، الناشر: مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، الجيزة، الأولى ٢٠٠٠م.

ثُمَّ في العصر الحديث ترى بعينيك سبح العلماء في بطون الغواصات أياماً متطاولات تحت البحار الطَّامِيات، وطيرانهم مثل ذلك في أجواء السَّماوات، فالإله الذي خلق العقل البشري، ومهد له سبيل الوصول إلى مثل هذه العجائب؛ ألَا يكون قادرًا على أن ييسِّر حصول مثله لعبده يُونُسَ ابْن مَتَّى – عليه السلام – ببعض الأسباب التي لم تزل مجهولة لنا؟! (١)

(١) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، تأليف: أ. د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي ٢/٧٣٣، ٧٣٤، ط: طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في السعودية، الأولى ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.

المطلب الثامن

الفريدة التاسعة: ﴿حَدَبٍ﴾

قبل الكشف عن بلاغة هذه الفريدة يجدر بيان أقوال أهل التفسير فيها، وقد ذكروا فِي مَعنَى «حَدَبٍ» فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾[1] ثَمَانِيَةَ أقوال:

الأَوَّلُ: الْمُرْتَفِع مِنَ الْأَرْضِ، وقائل هذا القول عَبْد اللَّهِ بْن عَبَّاسٍ -ﷺ-، وعِكْرِمَة (ت ١٠٥هـ) مولى عَبْد اللَّهِ بْن عَبَّاسٍ -ﷺ-، وَأَبُو صَالِحٍ[2]، وَسُفْيَان الثَّوْرِيُّ (ت ١٦١هـ) وَغَيْرُهُمْ[3].

وروي عن مُجَاهِدٍ قال: «مِن كُلِّ حَدَبٍ» أي: مُرْتَفِع مِنَ الْأَرْضِ كَجَبَلٍ وغيره[4].

الثَّانِي: فِجَاجِهَا[5] وأَطْرَافِهَا، وهذا قول عَبْد اللَّهِ بْن عَبَّاسٍ -ﷺ-.

---

(١) الأنبياء: (٩٦).

(٢) أَبُو صَالِحٍ الهَاشِمِيُّ: هُوَ بَاذَامُ، وَيُقَالُ: بَاذَان، مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ بِنْت أَبِي طَالِب أُخْت عَلِيِّ ابْن أَبِي طَالِب، من الثالثة ضعيف، يُحَدِّثُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ وَلَمْ يَرَهُ، رَوَى عَنْهُ الْكَلْبِيُّ وسفيان الثوري. تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٤١٦/١، ط: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الأولى ١٣٢٦هـ.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٢٧/٥.

(٤) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٨٧/٩، ت: علي عبد الباري عطية، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٥هـ.

(٥) الفِجَاج: جَمْعُ فَجٍّ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الواسعُ بَين جَبَلَيْنِ. القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ٢٠٠، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الثامنة ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

الثَّالِثُ: حَوْلَهَا.

الرَّابِعُ: تَلاعها[1] وآكَامِهَا، مأخوذ من حَدبَةِ الظَّهْر [2].

الْخَامِسُ: مِنْ كُلِّ شَرَفٍ[3] ونَشَزٍ[4]، وأَكَمَةٍ [5] [6].

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ -ﷺ-، قَوْلُهُ: ﴿مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ قال: «مِنْ كُلِّ شَرَفٍ يُقْبِلُونَ» أَيْ: لِكَثْرَتِهِمْ يَنْسِلُونَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ[7].

وقال قَتَادَةُ: مِنْ كُلِّ أَكَمَةٍ[8].

---

(١) **التِّلَاعُ**: مَجَارِي أَعْلَى الأَرْض إِلَى بُطُونِ الأَوْدِيَةِ واحدتها تَلْعَة. انظر: الصحاح تاج اللُّغة وصحاح العربية ١١٩٢/٣.

(٢) انظر: النكت والعيون ٤٧١/٣.

(٣) **الشَّرَفُ**: ما ارْتَفَع من الأَرْضِ. انظر: معجم ديوان الأدب لأبي إبراهيم الفارابي ٢٢١/١، تحقيق: د/ أحمد مختار عمر، مراجعة: د/ إبراهيم أنيس، الناشر: مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

(٤) **النَّشَزُ**: الْمَكَانُ الْعَالِي الْمُرْتَفِعُ، وَالنَّشْزُ: الِارْتِفَاعُ. انظر: تهذيب اللُّغة ٢٠٩/١١، ومقاييس اللُّغة ٤٣٠/٥.

(٥) **الْأَكَمَةُ**: مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ دُونَ الجَبَلِ.انظر: تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٢٢٣/٣١، ت: مجموعة من المحققين، ط: دار الهداية.

(٦) انظر: جامع البيان للطبري ٥٣١/١٨.

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٢٤٦٧/٨، ت: أسعد الطيب، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الثالثة ١٤١٩هـ، والجامع لأحكام القرآن ٣٤١/١١.

(٨) انظر: الدر المنثور ٦٧٣/٥، وتفسير عبد الرزاق ٣٩٢/٣، ت: د/ محمود محمد عبده، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٩هـ، وتفسير يحيى بن سلام ٣٤٣/١، وقول قتادة أخرجه البخاري، كتاب أَحَادِيث الأَنْبِيَاء، باب قِصَّة يَأْجُوج وَمَأْجُوج ١٣٧/٤.

وقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: «الْحَدَبُ»: الشَّيْء الْمُشْرِف[1].

السَّادِسُ: قيل: مِنْ كُلِّ جَانِبٍ[2]، كأنهم لما سُدَّ عليهم ذلك السَّد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، أي: بين ما يتعيشون ويرتزقون من هذا العالم تفرقوا في تلك الأمكنة لطلب ما يتعيشون به، فإذا بلغهم خبر فتح السد أتوا من كل جهة وناحية التي كانوا متفرقين فيها.[3]

السَّابِعُ: عَن مُجَاهِدٍ قَالَ: جَمِيع النَّاس من كَانَ مَكَان جاؤوا مِنْهُ يَوْم الْقِيَامَة فَهُوَ حَدَبٌ [4]، وورد هذا أيْضاً عن عَبْد اللَّهِ بْن مَسْعُودٍ -ﷺ-(ت ٣٢هـ)[5].

الثَّامِنُ: الْحَدَبُ: الشَّيْء اليابِس مِن الأَرْضِ، وقائل هذا القول سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ[6].

---

(١) انظر: جامع البيان ٥٣٢/١٨، المُشْرِفُ: الْمَكَانُ الْمُشْرِفُ الْمُرْتَفِعُ الْعَالِي، وَجَبَلٌ مُشْرِفٌ أَيْ: عَالٍ. مختار الصحاح للرازي ص ١٦٤، ت: يوسف الشيخ محمد، ط: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط: الخامسة ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

(٢) انظر: تفسير القرآن للسَّمعاني ٤٠٨/٣.

(٣) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) ٣٧٦/٧.

(٤) انظر: تفسير مجاهد ٤٧٤/١، ت: د/ محمد عبد السلام أبو النيل، ط: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الأولى ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤١٦/٢ برقم ٣٤٤٨ وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ»، وقال الذَّهبيُّ: صحيح.

(٦) تفسير سفيان الثَّوري ٢٠٥/١، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

- واصطفاء تلك الفريدة لما فيها من إشاراتٍ ودلالات جمَّة منها:

– أن الفريدة تحمل في جُعْبَتِها أغلب المعاني التي ذكرها المفسرون، فهي من باب المشترك اللَّفظي المستعمل في معاني شتى[1]؛ بدليل أنَّك لو أدرت نظم الآية على أغلب الأقوال – ممَّا سبق – لاستقام المعنى العام لسياق الكلام.

– حروف الفريدة لمن يتأملها تحكي صِفة يَأْجُوج وَمَأْجُوج فِي حَالِ خُرُوجِهِمْ كَأَنَّ السَّامِعَ مُشَاهِد لذلك وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ، فانظر إلى الحاء المهموسة الرخوة التي تصور انطلاقهم، ثم الدال المجهورة الشديدة، وزادها قوة وشدة تنوينها كل ذلك يحمل شدة السرعة، والباء التي فيها قلقلة، ولن تستطيع لفظة أخرى بجرس أصواتها أن تؤدي بوضوح هذه المعاني المتكاثرة، فحلت الفريدة في مكانها الأليق بها، فحركتهم ليست حركة عادية، بل فيها قلق واضطراب ويشيعون الفوضى والارتباك في كل مكان يحلُّون فيه، وقد أشار العلامة الطاهر بن عاشور إلى ذلك فقال: (وَالْمُرَادُ: الْمَشْيُ السَّرِيعُ، وَإِيثَارُ التَّعْبِيرِ بِهِ هُنَا مِنْ نُكَتِ الْقُرْآنِ الْغَيْبِيَّةِ؛ لِأَنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ لَمَّا انْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ انْتَشَرُوا كَالذِّئَابِ جِيَاعًا مُفْسِدِينَ)[2].

---

(١) <u>الْمُشْتَرَك اللَّفْظِي</u>: هُوَ مَا اتَّحَدَ لَفْظُهُ وَتَعَدَّدَ وَضْعُهُ وَمَعْنَاهُ كلفظ الْعَيْن تطلق على: الباصرة، قُرص الشَّمس، الجاسوس، العين الجارية، الذهب، عين الْمِيزَان. انظر: شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه لسعد الدين التفتازاني ٥٥/١، ٥٦، ت: زكريا عميرات، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.

(٢) التحرير والتنوير ١٥٠/١٧.

– تعكس الفريدة تفرد تلك الحالة – على هذا النحو الدقيق – في القرآن؛ إذ لم ترد في أي سياق آخر، كما تعكس تفردها في تاريخ الإنسانية؛ لأنَّ ما سيقع من يَأْجُوج ومَأْجُوج من تخريب وتدمير لم تعهد البشرية مثله من قبل، فهم سيأتون على الأخضر واليابس، فقد أخرج الإمام أحمد بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ: «يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، يَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ – ﷻ –: ﴿مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فَيَغْشَوْنَ الْأَرْضَ، وَيَنْحَازُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ، وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الأَرْضِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهَرِ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ، حَتَّى يَتْرُكُوهُ يَبَسًا، حَتَّى إِنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهَرِ فَيَقُولُ: قَدْ كَانَ هَاهُنَا مَاء مَرَّةً، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَحَدٌ فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ قَالَ قَائِلُهُمْ: هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ، قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ، بَقِيَ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يَهُزُّ أَحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ مُخْتَضِبَةً دَمًا[1]، لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ، فَبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ دُودًا فِي أَعْنَاقِهِمْ، كَنَغَفِ الْجَرَادِ[2] الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ مَوْتَى لَا يُسْمَعُ لَهُمْ حِسًّا، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: أَلَا رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرَ مَا

(١) مُخْتَضِبَةً دَماً: خضبْت الشَّيْء أخضبه خضْباً وخضّبته أي: غيَّر لونَه بحُمْرَةٍ، أَو صُفْرَةٍ، أَو غيرهما، وكلُّ مَا غُيِّرَ لونُه فَهُوَ مَخضوبٌ. انظر: المخصص لابن سيده ٢٧٥/٣، ولسان العرب ٣٥٧/١، وتاج العروس ٣٦٦/٢.

(٢) كَنَغَفِ الْجَرَادِ: النَغَفِ بنُون وغين مُعْجمَة مفتوحتين ثمَّ فَاء، وَهُوَ دُودٌ يكون فِي أُنُوفِ الْإِبِل وَالْغنم الْوَاحِدَة نغفة. انظر: شروح سنن ابن ماجة، تأليف: السيوطي، الهندي، الدهلوي، البوصيري، الكنكوهي، النعماني ١٥٠٠/٢، ت: رائد بن أبي علفة، ط: بيت الأفكار الدولية، الأولى ٢٠٠٧م.

فَعَلَ هَذَا الْعَدُوُّ، قَالَ: فَيَتَجَرَّدُ رَجُلٌ مِنْهُمْ لِذَلِكَ مُحْتَسِبًا لِنَفْسِهِ قَدْ أَظَنَّهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ، فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَيُنَادِي: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَلَا أَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ، وَحُصُونِهِمْ، وَيُسَرِّحُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَمَا يَكُونُ لَهَا رَعْيٌ إِلَّا لُحُومُهُمْ، فَتَشْكَرُ عَنْهُ كَأَحْسَنِ مَا تَشْكَرُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطُّ»(١).

– إنَّ الفريدة تتناسب مع اللَّفظة بعدها: ﴿يَنْسِلُونَ﴾، فكُلَّما كان المكان مُرتَفِعَاً كان المشي والنُّزُول إلى أسفلٍ أسرع وأقوى؛ لأنَّهم يطلعون من كل جَبَلٍ ومُرتَفع ويَعُمُّونَ الأرض بسبب كثرتهم الباهرة(٢)، فالنَّسَلَان مِشْيَة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٥٦/١٨ برقم ١١٧٣١ واللَّفظ له، وقال شعيب: إسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد صرَّح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، والحاكم في المستدرك ٥٣٥/٤ برقم ٨٥٠٤ وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، وقال الذَّهبيُّ: على شرط البخاري ومسلم، وأبو يعلى في مسنده ٥٠٣/٢ برقم ١٣٥١ وقال المحقق: إسناده صحيح، ت: حسين سليم أسد، ط: دار المأمون للتراث، دمشق، الأولى ١٤٠٤هـ.

(٢) يُشير إلى كثرتهم ما جاء عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ – ﷺ –، عَنِ النَّبِيِّ– ﷺ –، قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، «وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا». أخرجه البخاري في كتاب أَحَادِيث الأَنْبِيَاء، باب قِصَّة يَأْجُوج وَمَأْجُوج ١٣٨/٤ برقم ٣٣٤٨ واللَّفظ له، ومُسلِمٌ في كتاب الْإِيمَان، باب قَوْله يَقُولُ اللهُ لِآدَمَ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ ٢٠١/١ برقم ٢٢٢.

الذِّئْبِ إِذَا أَسْرَعَ مع مقاربة الخُطى، يُقَالُ: نَسَلَ فُلَانٌ فِي الْعَدْوِ يَنْسِلُ بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ نَسْلًا وَنُسُولًا وَنَسَلَانًا، أَيْ: أَسْرَعَ، أَيْ: أَنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ كُلِّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ يُسْرِعُونَ الْمَشْيَ، وَيَتَفَرَّقُونَ فِي الْأَرْضِ (١).

– تُشير اللَّفظتان ﴿حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ إلى أنَّ الأرض كُرة كما نصَّ على ذلك العلَّامة الخطيب الشربيني(٢)، والبقاعي(٣)، وهذا ما دلَّت عليه آيات القرآن الكريم، وصدَّق عليه العلم الحديث، فلو وضعت أي كلمة أُخرى غير الفريدة ككلمة «مرتفع» مثلاً لَمَا أَوْمَأت إلى هذه الحقيقة العلمية التي حيَّرت العلماء قديماً وحديثاً.

– إنَّ المُفردة القُرآنيَّة قد صَوَّرت كيفيَّة خُروجَهم بصُورة لا مَثِيلَ لها في عالَمِ الوجُودِ، بل هو إعجاز لا يرقى إليه عقل بشري، فأنَّى للبشر التقاط هذه اللَّقطات ؟! فهم يأتُون من مَكانٍ مُرتفِعٍ، ثُمَّ يَنزِلُونَ إلى مُنخفَضٍ كالماء عندما ينزِل من أعلى إلى أسفلِ، والارتفاع لا يكُون عائقاً وحاجزاً ومانِعاً لهم من سيرهم وشِدَّةِ حركتهم، وإحاطَتهم وتَسَلُّطهم على الأرض، وذلكَ بما ركَّبَ الله فيهم وخَلَقَ لهم من الأسبَابِ التي تُسَهِل عليهم الأُمور الصَّعبة الشَّديدة، وتُقَرِّب وتَطوي لهم الأشياء البعيدة.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٤١/١١، وفتح القدير ٥٠٤/٣.

(٢) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ٥٣٠/٢، ط: مطبعة بولاق، القاهرة ١٢٨٥هـ.

(٣) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٨١/١٢، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

إنَّ لفظة ﴿مِن كُلِّ حَدَبٍ﴾ «تشمل جميع المواضع والأقطار: سهلها وصعبها، منخفضها ومرتفعها، وإنَّما نَصَّ الله – ﷻ – على المرتفعات[1]؛ ليدخل فيها السهول والأماكن المنخفضة من باب أَوْلى»[2].

– الفريدة قد أَوْمَأتْ إلى بروزهم وظهورهم فجأة بعدما كانوا منحازين في ديارهم منغلقين على أنفسهم كعادة مَنْ يسكنون المرتفعات الشاهقة والجبال العالية، فالتصوير هنا يُوحي كأنَّ سطح الأرض قد انفتح فجْأة فَجاسُوا في كل مكان، أو كأنَّ الأرض كانت حُبْلى بهؤلاء الخَلق ثُمَّ نثرتهم فجأة على ظهرها فهم يتوالدون ويتناسلون من داخلها، وهذا من رَشَاقَة عرض القرآن وحسن تصويره للأحداث.

(١) على قول أكثر أهل التفسير الذين فسَّروا اللَّفظة بـــ «المُرتفع» كما سبق بيانه، وكذا أهل اللُّغة. انظر: جمهرة اللُّغة ٢٧٣/١، الصحاح ١٠٨/١، مختار الصحاح ص ٦٨، المصباح المنير ١٢٣/١، معاني القرآن للفرَّاء ٢١١/٢، ت: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، ط: دار المصرية للتأليف والترجمة، الأولى، معاني القرآن وإعرابه للزَّجاج ٤٠٥/٣.

(٢) تيسير اللَّطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لعبد الرحمن بن ناصر آل سعدي ص ٢٦٤، ط: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الأولى ١٤٢٢هـ.

المطلب التاسع

الفريدة العاشرة: ﴿نون العظمة﴾

وأختم البحث بلطيفةٍ عنَّت لي من خلال المعايشة والبحث والتنقيب في هذه السُّورة الكريمة ألا وهي: أنَّ سورة الأنبياء هي الوحيدة من بين سور القرآن التي كثُر فيها ورود نون العظمة حيث بلغت «مائة وأربع عشرة مرة»، وهذا العدد هو أعلى عدد تحقَّق في هذا المقام مع صغر حجمها وقِصَر آياتها إذا قِيستْ بغيرها من السور المدنية خاصة الطِوال منها كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغيرها، فضلاً عن أنْ تكون مكية كالأنعام والأعراف والإسراء وغيرها، وهذا راجع إلى عدة لطائف منها:

الأولى: أنَّ هذا العدد الذي اشتملت عليه سورة الأنبياء من نونات العظمة هو نفس عدد سور القرآن الكريم كله، وكأنَّ الله يريد أنْ يُلفت أنظارنا إلى أنَّ مظاهر عظمته تملىء جميع سور القرآن، وأنَّها تفيض بها بغض النظر عن ورود هذه النون فيها أو عدمه، سواء أكان ورودها كثيراً أم قليلاً، وحتى لا يتوهم متوهم أنَّ السور التي خلت من هذه النون قد قلَّت فيها مظاهر العظمة فضلاً عن أنْ تنعدم فيها، وفي هذا نفع ظاهر ودليل ساطع على الإحكام في كتابه تَعَالَى على وجه باهر(١).

(١) أفدته من كتاب: نون العظمة في القراءات العشر، وقفات ودلالات، أ.د/ مصطفى أحمد سليمان، بحث منشور بمجلة كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط، العدد: الرابع والثلاثون ٢٠١٦م، الجزء الثالث ص٣١٣٦.

الثانية: هذه السورة قد اشتملت على جميع أعداد العظمة وأرقامها التي وردت في القرآن كله، حيث اشتملت على أحاديات العظمة أي الآيات التي وردت فيها نون العظمة مرة واحدة، وكذا ثنائياتها أي التي اشتملت على نون العظمة مرتين، وكذا ثلاثياتها ورباعياتها وخماسياتها وسداسياتها وسباعياتها وهو آخر أرقام العظمة في القرآن، فليس هناك آية اشتملت على أكثر من سبع نونات متفق عليها عند القراء العشرة في القرآن الكريم كله، بخلاف ما لو ضممنا مع المتفق عليه ما اختلف فيه، فإنَّه قد يزيد عن هذا العدد ليصل إلى ثمان نونات.

وعلى هذا فسورة الأنبياء جامعة لجميع أعداد العظمة، فقد ورد فيها ما اشتمل على نون واحدة كقوله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(١)، وهناك ما اشتمل على نونين كقوله تَعَالَى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنا مِن قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ﴾(٢)، وثلاث نونات كقوله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ﴾(٣)، وأربع نونات كقوله تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾(٤)، وخمس نونات كقوله تَعَالَى: ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾(٥)، وست نونات كقوله تَعَالَى:

---

(١) الأنبياء: (١٠).
(٢) الأنبياء: (١١).
(٣) الأنبياء: (٥١).
(٤) الأنبياء: (٤٧).
(٥) الأنبياء: (٧٩).

﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِن كُنَّا فاعِلِينَ﴾(١)، وليس فيها من هذا العدد إلَّا هذه الآية.

وسبع نونات كقوله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾(٢)، وليس فيها من هذا العدد إلَّا هذه الآية(٣).

وبهذا يُعلم أنَّ هذه السورة قد تضمنت جميع أعداد العظمة بصورة جعلت ذلك من فرائدها.

الثالثة: مقصد السُّورة الأعظم فيها هو تقرير موضوع العقيدة سواء أكان مُتعلِّقاً بالإلهيات أم النبوات أم السمعيات(٤)، وبيان نصرة الله لرسله وأنبيائه، وتأييدهم بأسباب النَّجاة من كل سوء وبلاء، وَدَفْعِ ما أصابهم من مكروه، وإهلاك من كذبهم وعاندهم وجحدهم، وكل ذلك يحتاج في تحقيقه والتعبير عنه إلى استخدام «نون العظمة»؛ حتى يعلم السَّامع والقارىء أنَّ الإله الذي نصر هؤلاء الأنبياء إنَّما هو الرَّب العظيم الذي له كل نُعُوت العظمة من القوة وَالْمُلْكِ وَالْعُلُوِّ والجبروت والانتقام والبطش الشديد، كما كان لهؤلاء الرُّسل حوائج ومطالب رفعوها إلى ربهم سائلين إياه أنْ يحقِّقها

---

(١) الأنبياء: (١٧).

(٢) الأنبياء: (١٠٤).

(٣) انظر: نون العظمة في القراءات العشر، وقفات ودلالات ص٣١٣٦، ٣١٣٧.

(٤) انظر: مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ، ويُسَمَّى: "المَقْصِدُ الأَسْمَى في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّى"، للبقاعي ٢٨٦/٢، ط: مكتبة المعارف، الرياض، الأولى ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

لهم، وقد تكررت البشارة بإجابتها في السورة، وهذا يدل على مزيد عناية الله بأنبيائه ورسله، فلا يقدر على تحقيق أغراض هذه الاستجابة إلَّا من توفرت فيه صفات الكمال والعزة التي تُنجز مُرادات الله لأنبيائه دون ربطها بالأسباب كما وقع لإِبْرَاهِيم – عليه السلام – ونجاته من النَّار وتعطيل صفة الإحراق فيها، وكما وقع لزَكَرِيَّا – عليه السلام – وإنجابه الولد بعدما بلغ من الكِبر عتياً وإزالة عوائق الإنجاب.

وإنْ شئت فتأمل لفظ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾ الذي جاء في أكثر من موضعٍ من السورة دون بقيَّة سور القرآن الكريم، وإنْ كان اشتقاق اللَّفظ نفسه قد ورد بصيغٍ آخرى كقوله تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(١)، وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي﴾(٢)، يُعْلَم ذلك بِاسْتِقْرَاءِ هذه المواضع في السورة، وإليك ذكرها مُرتَّبة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ونُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾(٣)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾(٤)

---

(١) غافر: (٦٠).
(٢) إبراهيم: (٢٢).
(٣) الأنبياء: (٧٦).
(٤) الأنبياء: (٨٣: ٨٤).

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(١)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾(٢)

ويُؤخذ من هذه الاستجابات أنَّها ليست مقصورة على الأنبياء وحدهم؛ إذ يُلاحِظ من خلال سِياق بعض الآيات السَّالفة أنَّ الله عقَّب بعد ذلك بصيغة العموم في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، فيدخل فيها كل مُوحِّد مُؤمن بالله وبأنبيائه ورسله إذا ما التزم بآداب الدعاء وسُننه، وأخذ بالأسباب وتوكل على مُسبِّب الأسباب، لا سِيما أنَّ الله أمرنا بالاقتداء بهم، فقال تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(٣)، وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾(٤)

وقد كان لكل دعوة من دعوات الأنبياء مِفتاح وسبب للإجابة حري بالمؤمن أنْ يلزمه ويعض عليه بالنَّواجذ في خِضَم ما تعتريه من مشاكل عَقَدِيَّة ونفسية واجتماعية واقتصادية وغير ذلك ممَّا تعصِف به رياح الشُّكوك وأبواق الإلحاد وفِتن الحياة المُتقلِّبة، فعند نُوح – عليه السلام –: الصبر الجميل، وأيُّوب – عليه السلام –: الأدب والتواضع الجَمَّ في خِطابه مع الله

(١) الأنبياء: (٨٧: ٨٨).
(٢) الأنبياء: (٨٩: ٩٠).
(٣) الأنعام: (٩٠).
(٤) الممتحنة: (٦).

– ﷻ –؛ إذ نسب الضُّر إلى نفسه، مع أنَّ الكل من عند الخالق – جَلَّ وعلا –: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾(١)، فما يراه الإنسان من الأسباب إنَّما هو من باب «خِداع العادة»، فالعادة تُصوِّر له أنَّ الطبيب يشفي، والأكل سبب الشَّبع، والماء سبب الرِّي وهكذا، لكن الفاعل الحقيقي لذلك كُله هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعبَّر بالمس: وهي الْإِصَابَة الخفيفة، دون لفظ الإصابة التي فيها معنى الشِّدة والمُبالغة، ووصف خالقه – تعالى – بأعظم صفات الرحمة دون أنْ يقترح أو يطلب شيئاً(٢)، ويُونُس – عليه السلام –: الدعاء الجامع لكل أبواب الخير، أوَّله توحيد الله وأوسطه تسبيح وتنزيه له، وآخره استغفار من الذنوب والأوزار، وزَكَرِيَّا – عليه السلام –: المسارعة في أفعال الخير والبر مع الجمع بين صفتي الرَّغبة فيما عند الله، والرَّهبة من عذابه وغضبه. والله أعلم ،،،

(١) النساء: (٧٨).

(٢) انظر: الكشاف ١٣٠/٣، والتحرير والتنوير ١٢٦/١٧.

خَاتِمَةٌ - نسأل الله حسنها -

الحمد لله الذي مَنَّ عليَّ بخِتام هذا البحث المُتواضع، وأسأله – جَلَّ وَعَلا – أنْ يتفضَّل عليَّ بخِتام الدُّنيا على الإسلام والإيمان، وبعد: فقد عشتُ رحلة علمية ماتِعة في الكشف عن بعض أسرار فرائد سورة الأنبياء المليئة بالنِّكات البلاغية واللَّطائف التفسيرية والأسرار البيانية والخصائص الجمالية، واتَّضح أنَّ هذا الفَن بمثابة بحر واسع تَكْمُن فيه أسرار البيان وتستفيض منه الكنوز؛ إذ يَحْمِلُ في طيَّاته أسراراً لا يترقبها سِوى ذووي الألباب وأساطين البلاغة وأرباب البيان، ولا أدَّعي أنَّ ما قدَّمته في هذا البحث في هذه الصفحات كافٍ لدراسة هذه الفرائد، فما عَمَلِي سِوى قَطْرة من هذا البحر، وما قدَّمته قليل والمشوار طويل، فهذا علم لا تنقضي عجائبه ولا ينتهي أثره، ولا يُحَاط بأسراره، ولا يُمكِن الوصول لمنتهاه، لذا الْتَمِس هُنا وأُسَجِّل في إيجازٍ أهَم النَّتائج التي تَوَصَّلت إليها هذه الدِّراسَة:

أولاً: عدد الفرائد الفذَّة في سورة الأنبياء عشر فرائد فقط، تنَّوعت في اشتقاقها ما بين أفعالٍ، فبلغت عدد فرائد الأفعال خمس هي: ﴿قَصَمْنا﴾، ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، ﴿يَكْلَؤُكُمْ﴾، ﴿فَفَهَّمْنَاها﴾، وعدد الأسماء اثنان وهي: ﴿نَفْحَةٌ﴾، ﴿حَدَبٍ﴾، وعدد المصادر واحداً هو: ﴿رَتْقًا﴾، وعدد الصِّفات واحداً: ﴿ذَا النُّونِ﴾، وعدد حروف «نون العظمة» مائة وأربع عشرة.

ثانياً: فرائد سورة الأنبياء منها ما ورد في سياق الترهيب والتهديد والوعيد: كإهلاك القرى الظالمة: ﴿قَصَمْنا﴾، وحال أهل الشرك وَالْإِجْرَام عند نزول العذاب بهم: ﴿نَفْحَةٌ﴾، وما أخبرنا الله – ﷻ – من أمارات السَّاعة: ﴿حَدَبٍ﴾، ومنها ما جاء في سياق الامتنان على الخلق سواء

أكانوا أنبياء: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾، أم يشملهم ويعم غيرهم: ﴿يَكْلَؤُكُمْ﴾، ومنها ما أتى في سياق لفت أنظار الخلق إلى بعض مظاهر الإعجاز العلمي في الطبيعة: ﴿رَتْقًا﴾، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، ومنها ما ورد في سياق تقرير سُنَّة من سُنن رب العِزَّة التي لا تتخلف ولا تتبدَّل ألا وهي الصِّراع بين الحق والباطل، ونُصرة الحق في نهاية تلك الجولة: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾.

وجميعها لمْ يأت رأس آية أو فاصلة تنتهي بها، بل جاءت في بداية آية أو وسطها.

ثالثاً: كشفت الدِّراسة أنَّ العامل الأَهَمَّ والسَّبب الأعَمَّ وراء هذه الفرائد هو مراعاة السِّياق حسب وروده في النَّظم القرآني الذي اقْتضى مجيء هذا اللَّفظ أو غيره كُلٍّ في مكانه، ولذا لمْ يتكرَّر مرَّة أُخرى مع تعدُّد مواطن الحدث واختلاف المواقف التي جاء فيها، وكل هذا كان لحكمةٍ ونُكْتة بلاغية أدركنا ذلك أم جهلنا، وهنا يكمن أهمية السِّياق القرآني وأثره في توجيه المعنى التفسيري على نحوٍ صحيحٍ، ومنعه تأويل النَّص تأويلاً غير سائغٍ ولا مقبول.

رابعاً: لم أجد عند أهل العلم الكلام عن هذه الفرائد بشكل مباشرٍ وواضحٍ ممَّا جعل مُهمَّة البحث عنها فيه مشقَّة وصعوبة مُضْنية، وشوقٌ عارمٌ يدفعني للمعرفة والكشف عن بعض أسرارها، ومع ذلك لمْ أجد ما يشف صدري، ولعلَّه في المستقبل يبوح لي أو لغيري من الباحثين عن الكشف عن باقي أسرار هذه الفرائد، وفيضها المُتجدِّد من المعاني والدَّلالات التي تكثر وتزيد بتدبُّر هذه الفرائد والتأمل فيها.

خامساً: القرآن الكريم أودع الله جَلَّ وَعَلا فيه من اللَّطائف والأسرار التي لا تنفد، والباحث المُتعطِّش لمعرفة مكنون آي الذِّكر الحكيم حين يفتح الله له

ويهبه من نور البصيرة، يهتدي إلى بحرٍ من الإيحاءات والمعاني التي تكشف له عن بعض مُراد الله تَعَالَى، وقد يكشف له ما لمْ يكشف للسَّابقين من العلماء والأفْذاذ، فرُبَّ صغير مفضول قد فَطِنَ إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل.

سادساً: دلالات الفرائد في القرآن الكريم ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالمعنى التفسيري واللُّغوي، بل في كثيرٍ من الأحيان يكون المعنى اللُّغوي هو نفس معنى الفريدة في الآية الكريمة، ولِمَا لا والقرآن الكريم قد نزل بلغة العرب؛ لذا يُفهم على ضوء استعمالاتها للألفاظ، قَال تَعَالَى: ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(١)، وقال أيضاً: ﴿وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا﴾ (٢).

سابعاً: أثبتت هذه الدراسة أنَّ التَّرَادُف بمعنى التطابق التَّام، والمتكافىء والمتساوي يخلو منه القرآن الكريم، وقد ظهر ذلك جليًّلاً من خلال الحديث عن فرائد سورة الأنبياء، ولا يُنكر ذلك عاقل بصير بدقائق اللُّغة وأسرارها؛ لأنَّه واضح لكل ذي عينين كوضوح الشَّمس في رابعة النَّهار، وهذا أتم دليل على إعجاز القرآن؛ إذ يظهر عظمة كلام الله تَعَالَى، وقدرة الخالق جَلَّ وعلا، ويُثبت قصور المخلوقين في عجزهم عن الإتيان بمثل ذلك ولو بكلمة واحدة تؤدي ما تُؤديه المفردة القرآنية من دقة الصِّياغة وروعة التعبير.

ثامناً: كشفت الفرائد القرآنية وأكدت بما لا يدع مجالاً للشكِّ أنَّ ألفاظ القرآن وُضعت على نظمٍ وبأسلوب فريد لا مثيل له في كلام البشر، بحيث تجد كل لفظ أحق بمكانه، فلا يصلح غيره أنْ يحل محله، أو يسد مسده، وإلا فسد نظم السياق وفقد بريقه وجماله الفني والصوتي والصرفي، فالمفردة القرآنية إنَّما هي كالبِناء المتماسك لا تقوم كلمة مقام الأخرى.

---

(١) الشعراء: (١٩٥).

(٢) الأحقاف: (١٢).

تاسعاً: أظهرت الدراسة مدى مناسبة الصوت اللُّغوي للفريدة القرآنيَّة، وأثر ذلك على أداء المعنى التفسيري سواء أكان ذلك في مواطن القوة والشِّدة أم في مواضع الضَّعف واللِّين، ممَّا يكشف جمال وقْعها على الأسماع، وسرعة نفاذها إلى القلوب والأفئدة حتى أنَّ غير العربي الذي لا دراية لـه بعلـوم العربية ليحس بوقْع ذلك على نفسه فيقوده إلى الدخول في الإسلام، وهـذا ما يُعرف بطريقة «الاستهواء الصـوتي» أي: جمـال الايقـاع الصـوتي يستهوي ويستثير السامع إلى الاسترسال في الاستماع لكلام الله – ﷻ –، فيطلب المزيد خاصة إذا كان القارىء من أهل الأداء، والمُنصِت من أهـل التذوق والْإِحْسَاس(١)، وهذا يُبيِّن مدى الصِّلة الوثيقة بين عِلمـي الفرائـد والتجويد من خلال صفات ومخارج الفريدة القرآنيَّة.

---

(١) **من هؤلاء في العصر الحديث:** «مارغريت ماركوس» كاتبة أمريكية استمعت إلى قراءة القرآن من أحد أعلام التلاوة في مصر فَاعْتَنَقَت الْإِسْلَام، وتسمَّت باسم مريم جميلة، والدكتور/ «سيدني فيشر» أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الامريكية، و«جاك جاك ريسلر» باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس، و«روم لاندو» نحَّات وناقد فني انكليزي، و«عائشة برجت هوني» نشأت في أسرة إنكليزية مسيحية، وشغفت بدراسة الفلسفة.
وللمزيد يُراجَع: قالوا عن الْإِسْلَام، تأليف: د/ عماد الدين خليل، ط: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، الأولى ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م، وعلماء وحكمـاء مـن الغرب أنصفوا الإسلام، ردودٌ على حملاتِ تشويهِ صورته في أوروبـا وأمريكـا، إعداد: الحسيني الحسيني معدّى، ط: دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، الأولـى ٢٠٠٧م.

عاشراً: يُلاحظ أنَّ فرائد «سُوْرَة الأَنْبِيَاء» جاءت متوافقة مع طابع القرآن الْمَكِّي، وهذا ظاهرٌ لائحٌ؛ لأنَّ السُّورة مكيَّة كما سبق تقريره، ويُعلم هذا التَّوافق والتَّناغم من خلال كُتُب علوم القرآن مبحث «الْمَكِّي وَالْمَدَنِي» حيث أسْهبت وأَشْبَعت الحديث عن ذلك.

- **أهم التوصيات:**

أولاً: على الباحثين أنْ يتوجهوا بتقليب النَّظر والتَّفكر إلى دراسة جوانب الإعجاز الأخرى التي انْطَوَتْ عليها «سُورَة الْأَنْبِيَاء» وإفرادها ببحوثٍ خاصة بها كالإعجاز الغيبى التاريخي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز المقاصدي، والإعجاز التربوي الإصلاحي التهذيبي ... الخ، وهذا يجعل البحث في هذه السُّورة الكريمة وأمثالها متعدِّداً ومختلفاً بل أكثر دقة وشمولاً وتخصصاً، ممَّا يزيدنا ارتباطاً بكتاب الله – ﷻ – من ناحية، وانْتِفاعاً بآثاره ونتائجه من ناحية أخرى، ويجعل الدراسات القرآنية متجدِّدة ومتنوعة لا تقف عند القراءة الحرفيَّة للنَّص القرآني.

ثانياً: تقرير مادة تُسَمَّى «فرائد القرآن الكريم» على طلاب الكليات الشرعية، وعلى الباحثين في مرحلة الماجستير والدكتوراه؛ ليكون الطالب أكثر تفاعلاً بلغة القرآن الكريم، ولديه من الحصيلة العلمية التي تُؤهله للرَّد على الشُّبهات المُثارة حول الإعجاز البياني واللُّغوي، والتي يتشدق بها بعض المُتَفَيْهِقين في هذا العصر.

ثالثاً: تأليف كتاب جامع في الإعجاز البياني للكشف عن فرائد القرآن الكريم؛ إذ لا يوجد حتى الآن – حسب علمي – كتاب مُصنَّف في هذا الجانب يجمع هذا الكم من الفرائد، لِذا أقترح على طلاب الدراسات العُلا في

الجامعات والمعاهد العلمية المتخصصة التعاون والعمل بروح الفريق لإخراج هذا المشروع العلمي الهائل الجامع لما تفرَّف في بُطون أمهات التُّراث الإسلامي قديماً وحديثاً، وكذلك اشتراك أكثر من تخصص معرفي وعلمي في إنجاز بحوث قرآنية جديدة.

رابعاً: ضرورة البحث في باقي سُور وآيات القرآن لجمع فرائدها ودراستها دراسة تفسيرية بلاغية تظهر من خلالها عظمة وجمال أُسلوب كلام ربِّ العالمين، حيث اقتصر بحثي على «سُورة الأنْبِيَاء»، فلا مانع من اختيار الباحثين بعض هذه السُّور والعيش معها وفي ظل رِحابها يسْتلهمون منها العِبر والفوائد، ويضيفون لها ما تجود به قريحتهم مُسْتضيئين بكلام السابقين.

وأسأل الله العلي القدير أنْ أكون قد وُفِّقتُ، وبإخلاص النِّية أَصَبْتُ، إنَّه سميع قريب مُجيب الدَّعوات، وهو أكرم مسئولٍ وأعظم مأمولٍ، وصَلَّى الله وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى سيدنا مُحَمَّد – ﷺ –، وَعَلَى آلِه وصَحْبِه وَالْتَّابِعِينَ لهُمْ بإحْسَانٍ إلى يوم الْدِّين.

كتبه: خادم القرآن الكريم وعلومه

د/ محروس رمضان حفظي عبد العال

غفر الله له ولوالديه

ثَبْت أهم المراجع

- القرآن الكريم – جلَّ مَنْ أنزله خير ما يُبْتَدأ به –.

[١] اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، تأليف: أ.د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي، ط: طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في السعودية برقم ٥/٩٥١، ١٤٠٦/٨/٥، الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

[٢] الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

[٣] إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (ت: ٩٢٣هـ) ط: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، السابعة ١٣٢٣هـ.

[٤] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (ت: ٩٨٢هـ) ط: دار إحياء التراث العربي.

[٥] أساس البلاغة للزمخشري(ت: ٥٣٨هـ)، ت: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨ م.

[٦] الأساس فى التفسير لسعيد حوي، ط: دار السلام، القاهرة، الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

[٧] الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية تأليف: أ.د/ عبدالله عبدالغني سرحان، ط: الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم «تدبر»، مركز التدبر للإستشارات التربوية والتعليمية، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط: الأولى ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

[٨] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، ط:

دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

[٩] الإعجاز العلمي إلى أين ؟ مقالات تقويمية للإعجاز العلمي، تأليف: د/ مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، الناشر: دار ابن الجوزي، ط: الثانية ١٤٣٣هـ.

[١٠] إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (ت: ١٤٠٣هـ)، ط: دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، الرابعة ١٤١٥هـ.

[١١] الإكسير في علم التفسير لسليمان بن عبد القوي الصرصري (ت: ٧١٦هـ)، حقَّقه: أ.د/ عبد القادر حسين، الناشر: مكتبة الأداب بالقاهرة، ط: الثانية.

[١٢] بحر العلوم للسمرقندي (ت: ٣٧٣هـ)، ت: علي محمد معوض وآخرون، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

[١٣] البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (ت: ٧٤٥هـ)، ت: صدقي جميل، ط: دار الفكر ١٤٢٠هـ.

[١٤] البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار إحياء الكتب العربية، الأولى ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

[١٥] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ)، ت: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٩٦م.

[١٦] بلاغِة الفَرائِد الفَذَّة في القُرآن الكريم المُضَارع نَمُوذجاً، تأليف: د/ كمال عبد العزيز إبراهيم، النَّاشر: الدَّار الثَّقافِيَّة للنشر، القاهرة، الأُولى ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

[١٧] البيان في عدِّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـ)، ت: غانم قدوري الحمد، ط: مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

[١٨] تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، ت: مجموعة من المحققين، ط: دار الهداية.

[١٩] التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر (ت: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤هـ.

[٢٠] التَّحقيق في كلمات القُرآن الكريم "يبحث عن الأصل الواحد في كُلِّ كلمةٍ، وتطبيقية على مُختَلفِ مَوارِد الإستعمال في كلماته تَعَالَى"، للمُحقِّق المُفسِّر العَلَّامة حسن المُصطَفَوي، ط: مُؤسَّسة الطِّباعة والنَّشر، وزارة الثَّقافة والإرشاد الإسلامي، مَركز نَشر آثار العَلَّامة المُصطَفوي، طَهَران، إيران، الأولى ١٤١٦هـ ١٣٨٥م.

[٢١] التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، ت: أصل تحقيقه «١٥» رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ط: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى ١٤٣٠هـ .

[٢٢] تفسير الثوري (ت: ١٦١هـ) ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٩٨٣م.

[٢٣] تفسير الشعراوي، الخواطر لمحمد متولي لشعراوي (ت: ١٤١٨هـ)، ط: مطابع أخبار اليوم.

[٢٤] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، ت: أسعد محمد

الطيب، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الثالثة ١٤١٩هـ.

[٢٥] تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، ت: محمد حسين شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٩هـ.

[٢٦] تفسير القرآن الكريم لابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، ت: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، ط: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الأولى ١٤١٠هـ.

[٢٧] تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (ت: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر ابن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض، السعودية، الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

[٢٨] التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ)، ط: دار الفكر العربي، القاهرة.

[٢٩] تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» لأبي منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)، ت: د/ مجدي باسلوم، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

[٣٠] التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد: نُخبة من علماء التفسير بإشراف: أ.د/ مصطفى مُسلم، ط: كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات، الأولى ٢٠١٠م.

[٣١] التفسير الوسيط للقرآن الكريم للإمام الأكبر أ.د/ محمد سيد طنطاوي، ط: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، فبراير ١٩٩٨م.

[٣٢] تفسير عبد الرزاق للصنعاني (ت: ٢١١هـ)، ط: دار الكتب العلمية، ت: د/ محمود محمد عبده، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٩هـ.

[٣٣] تفسير مُجَاهد لأبي الحجاج مجاهد بن جبر (ت: ١٠٤هـ)، ت: د/ محمد عبد السلام أبو النيل، ط: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الأولى ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.

[٣٤] تفسير مقاتل بن سليمان، مقاتل بن سليمان البلخى (ت: ١٥٠هـ)، ت: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٣هـ.

[٣٥] تفسير يحيى بن سلام (ت: ٢٠٠هـ)، ت: د/ هند شلبي، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٢٥هـ.

[٣٦] تهذيب التهذيب للعسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، ط: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الأولى ١٣٢٦هـ.

[٣٧] تهذيب اللُّغة للأزهري (ت: ٣٧٠هـ)، ت: محمد عوض، ط: إحياء التراث العربي، الأولى ٢٠٠١م.

[٣٨] تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لعبد الرحمن بن آل سعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، ط: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، الأولى ١٤٢٢هـ.

[٣٩] جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ت: ٣١٠هـ)، ت: أحمد محمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

[٤٠] الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - ﷺ - وسننه وأيامه = صحيح البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر، ط: دار طوق

النجاة، الأولى ١٤٢٢هـ .

[٤١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت: ٦٧١هـ)، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب المصرية، القاهرة، الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

[٤٢] جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، ط: دار المكتبى، دمشق، الثانية ١٤١٩هـ.

[٤٣] حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي للخفاجي (ت: ١٠٦٩هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت.

[٤٤] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، ط: السعادة ١٩٧٤م.

[٤٥] خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، تأليف: أ.د/ محمد محمد أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ط: السابعة.

[٤٦] الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، ط: دار الفكر، بيروت.

[٤٧] روح البيان لإسماعيل حقي الإستانبولي (ت: ١١٢٧هـ)، ط: دار الفكر، بيروت.

[٤٨] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، ت: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١٥هـ.

[٤٩] زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، ت: عبدالرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

[٥٠] زهرة التفاسير لمحمد بن أحمد المعروف بأبي زهـرة (ت: ١٣٩٤هـ)، ط: دار الفكر العربي.

[٥١] السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكـيم الخبير للخطيب الشربيني (ت: ٩٧٧هـ)، ط: مطبعة بـولاق، القـاهرة، ١٢٨٥هـ.

[٥٢] سير أعلام النبلاء للذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، ت: مجموعة من المحققـين، ط: الرسالة، الثالثة ١٩٨٥م.

[٥٣] الصحاح تاج اللُّغة وصحاح العربية للجوهري (ت: ٣٩٣هـ)، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين، بيـروت، الرابعـة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

[٥٤] الصَّوت اللُّغوي في القُرآن للدكتور: مُحَمَّد حُسين علي الصَّغِير، ط: دار المُؤرِّخ العربي، بيروت، موسُـوعة الدِّراسـات القُرآنيَّـة: «٢»، ط: الأُولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

[٥٥] طبقات المفسرين للداوودي (ت: ٩٤٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلميـة، بيروت.

[٥٦] علم اللُّغة الحديث، الأُسس الأولى لرولون س. ويلز، ترجمة: د/ يوئيل يوسف عزيز، ط: دار الشئون الثقافية العامة بوزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٦م.

[٥٧] العـين للخليـل (ت: ١٧٠هـ)، ت: مهـدي المخزومـي، د/ إبـراهيم السامرائي، ط: دار ومكتبة الهلال.

[٥٨] غريب القرآن لابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ)، ت: أحمد صقر، ط: دار الكتب

العلمية ١٩٧٨م.

[٥٩] فتح الباري شرح صحيح البخاري للعسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، ط: دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ.

[٦٠] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، ط: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الأولى ١٤١٤هـ.

[٦١] الفروق اللُّغويَّة للعسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، ت: محمد إبراهيم سليم، ط: دار العلم والثقافة، القاهرة.

[٦٢] القاموس المحيط للفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ)، ط: الرسالة، بيروت، الثامنة ٢٠٠٥م.

[٦٣] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٧هـ.

[٦٤] الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)، ت: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة: أ/ نظير الساعدي، ط: دار إحياء التراث العربي، الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

[٦٥] الكنز في القراءات العشر لأبي محمد، عبد الله بن المبارك المقرئ، ت: د/ خالد المشهداني، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

[٦٦] لسان العرب لابن منظور (ت: ٧١١هـ)، ط: دار صادر، بيروت، الثالثة، ١٤١٤هـ.

[٦٧] لسان الميزان للعسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط: البشائر الإسلامية، الأولى ٢٠٠٢م.

[٦٨] مباحث في إعجاز القرآن، د/ مصطفى مسلم، ط: دار القلم، دمشق، الثالثة ٢٠٠٥م.

[٦٩] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (ت: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

[٧٠] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ)، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤٢٢هـ.

[٧١] المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، ت: عبدالحميد هنداوي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م

[٧٢] مختار الصحاح للرازي (ت: ٦٦٦هـ)، ت: يوسف الشيخ محمد، ط: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الخامسة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

[٧٣] المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

[٧٤] مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، ط: الرسالة، الأولى ١٤٢١هـ.

[٧٥] المُسنَد الصَّحيح المُختَصَر بنقل العَدل عن العَدل إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ –

لمسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٧٦] معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي (ت: ٥١٠هـ)، ت: عبد الرزاق المهدي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى ١٤٢٠هـ.

[٧٧] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت: ٣١١هـ)، ت: عبد الجليل عبده شلبي، ط: عالم الكتب، بيروت، الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

[٧٨] المعجم الاشتقاقي المُؤصّل لألفاظ القرآن الكريم مؤصّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبيان معانيها، أ.د/ محمد حسن جَبَل، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، الأولى ٢٠١٠م.

[٧٩] معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان المَلامِح الفَارِقة بين الألفاظ مُتَقارِبة المعنى، والصِّيَغ والأساليب المُتشابِهة لمحمد محمد داود، ط: دار غريب، القاهرة ٢٠٠٨م.

[٨٠] معجم الفروق اللُّغوية للعسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، ت: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، ط: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الأولى ١٤١٢هـ.

[٨١] معجم ديوان الأدب للفارابي (ت: ٣٥٠هـ)، ت: د/ أحمد مختار عمر، مراجعة: د/ إبراهيم أنيس، ط: مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٣م.

[٨٢] معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، ت: أ.د/ محمد إبراهيم عبادة، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، الأولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

[٨٣] معجم مقاييس اللُّغة لابن فارس (ت: ٣٩٥هـ)، ت: عبد السلام هارون، ط: دار الفكر ١٣٩٩هـ.

[٨٤] مفاتيح الغيب = التفسير الكبير للفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، ط: دار إحياء التراث العربي، الثالثة ١٤٢٠هـ.

[٨٥] المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، محمد العبد، ط: دار الفكر العربي، الأولى ١٩٩٤م.

[٨٦] المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، الأولى ١٤١٢هـ .

[٨٧] من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النَّص القرآني، أ.د/ طالب محمد إسماعيل الزوبعي، ط: دار النهضة العربية، بيروت، الأولى ١٩٩٦م.

[٨٨] من آيات الإعجاز العلمي السماء في القرآن الكريم، تأليف: أ.د/ زغلول النجار، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: الرابعة ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

[٨٩] مِن بلاغَةِ الفَرائِدِ الفَذَّةِ في القُرآن الكَرِيم الفِعلِ الماضِي نَمُوذَجَاً، د/ السَّيِّد مُحَمَّد سَالِم، مجلّة جامعة المَدِينة العَالمِيَّة "مجمَع"، العدد العاشِر ٢٠١٤م.

[٩٠] موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي لعبد اللطيف عاشور، ط: مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، الجيزة، الأولى ٢٠٠٠م.

[٩١] الموسوعة القرآنية، خصائص السور، تأليف: جعفر شرف الدين، ت:

عبد العزيز بن عثمان التويجزي، ط: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، الأولى ١٤٢٠هـ.

[٩٢] مَوسُوعة علم النَّفس والتَّحلِيل النَّفسي، تأليف: د/ فَرج عبد القادر، الناشر: دار سُعاد الصَّبَاح، الكويت، ط: الأُولى ١٩٩٣م.

[٩٣] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

[٩٤] النكت والعيون للماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، ت: السيد بن عبد المقصود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

[٩٥] الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

* * * * *